

كلمة العدد :

عجلة التاريخ في صيرورتها لن تتوقف قدما...

بقلم : محسن الكريفي

هذه سنة أخرى يهَلّ هلالها وأخرى تنكسف شمسها.. وبين الأُمس واليوم تندمل حلقة تاريخية وتتفتّق أخرى بين مهنئ ومثفائل، بين مثشائم ومنتظر، بين كالح وباسم، ثمضي عجلة التاريخ. تتزّ وتعاند ولكنها لا تني أو تتوقف...

قد يبدو للبعض أنّ التاريخ قد وصل منتهاه وحقق غايته وبلغ أوجهه بالمفهوم الهيقلي، وأنّ المجتمع آل إلى منتهى رقيّة وفتح مجالات مستحيلة وأفضى إلى أعلى درجات الاكتمال المادي والأخلاقي على حدّ عبارة فرانسيس فوكوياما، يبدو هذا ظاهرا ولكنّ الحقيقة غير الظاهر. لا يتوقّف التاريخ ولن تكلّ عجلته عن الدّوران ما لم تنته بواعثه وتزول التناقضات القادحة لحركته وأهمّها وجود بون بين ما يقتضيه الآن والزّمان، الخاصّ والعامّ، المصلحة والوجدان- عوالم الخارج والعوالم القصيّة- المطامع الذاتيّة والإنسانيّة. هذه التناقضات أفرزت الأعاصير وهيحان العصا الغليظة تطرق لاعات رفض العنهيّة تهرس نداءات السّخط على معالم الحضارات الإنسانية تداس، ومواطن أقدس الرّسالات تنتهك. معالم بابل وحده التاريخ شاهد كم أنفشنا قدّمت قريانا جراءها وكم معماريين أفنوا العمر تهيئة لها وإعلاء. ولكنها تردّي

بين السَّنابلِك تَوَاد وتَسْرَق ويَذَر رمادها في الرِّيح.

إنَّ تونس بوعِيها العميق بثورتها المِهادنة وصيرورة التاريخ والبواعث المحركة لدولابه لتسعى جاهدة إلى إيجاد مواءمة بين مقتضيات التطوُّر والوجود والتاريخ. تركز على بناء الإنسان وما فيه من مقوِّمات الرقيِّ المادي والإشباع الرُّوحي. ترتقِّ الفجوة بين مقوِّمات الشخصية الحضاريَّة والتطلُّع إلى العالميَّة والإنسانيَّة - وستظلُّ تونس شاهدا على إمكانيَّة استرجاع الثقة إلى هذا العالم تهزّه المتناقضات وتنخره الصراعات بمُدوئها وعقلانيَّتها وتساعِها ووعيها بالبواعث الحقيقيَّة لحركة التطوُّر.

أوَّل مصالحة مع التاريخ إعطاء الثقافة منصب الرِّيادة فهي الأوَّل والآخر. جرَّب العالم تجارب شتَّى وبقي الأدب والفلسفة والشعر وسائر دروب الفنِّ سندا لتهذيب تنوعات الذات وفجواتها. لا خير في أمة تحترق فنانيَّها وبناتها وبذلكت تمثال بدر شاكر السَّياب مدفعا أجذب. الحضارة الكونية عالم من التَّحوى والتَّضامن والتَّسامح ونجدة الضعفاء مهما كان جنسهم ولونهم ولغتهم ومكانهم ...

يشهد التاريخ أنَّ العنجهيَّة وحدها تقلب الدِّيكور السَّاكن للعالم. بدل التَّربيت تنوشه بسهامها الأبنائيَّة. سيشهد التاريخ أنَّ بلادنا عظيمة وأنَّ حضارتنا راقية وأصولنا ثابتة لأننا لم ننس يوما أنَّ التاريخ بصيرورته لا يرحم المتناومين ...

بانوراما : الطبيعة البشرية

(2)

بقلم : عادل بو علي

الفروقات بين الإنسان والحيوان : المستوى الفيزيولوجي:
-الوقفة العمودية، تحرّر اليدين، القرد الأعلى رباعي الأيدي بينما الإنسان ذو يدين اثنين وذو قائمتين، تقابل الإبهام.
لقد أدّت الوقفة العمودية إلى تحرّر اليدين شرط الممارسة الإنتاجية:
صنع أدوات الإنتاج لتغيير الطبيعة وتلبية الحاجات وفي هذا الإطار يعتبر برغسون أنّ أول مجال يتجلى فيه الذكاء الإنساني هو مجال صنع الآلات. أي أنّ الإنسان لم يتميّز فعلياً عن الحيوان إلاّ عندما أصبح كائناً صانعاً لأدوات إنتاجية والحدّ الفاصل بين الطّبيعيّ والثّقافي يعود إلى مظهر اتّصال الإنسان بالطّبيعة وهذا معنى قول ماركس "العمل جوهر الإنسان".

المستوى البيولوجي :

ويظهر الاختلاف الأكثر أهميّة بين الإنسان والقردة العليا في درجة تعقّد التّركيبة العضويّة في مستوى الجهاز العصبي المركزي فمعدّل وزن دماغ الإنسان الذّكر يبلغ 1300 غ في حين أنّ معدّل دماغ الغوريلا الذّكر 463 غ.

-الكتلة المخيّة تحتلّ نسبة 20% من حجم الجسم عند الإنسان و5% من حجم الجسم عند الغوريلا أمّا التّلافيف المخيّة فمساحتها 222600

مم² عند الإنسان و 4000 مم² عند القردة العليا.

- تمثل الفروقات البيولوجية في مستوى الجهاز العصبي شرط إمكان الوعي بالطبيعة (أنماط المعرفة) والمجتمع (الحاجة إلى بعث مؤسسات اجتماعية تنظم ازلاقات) فتتشكل الثقافة في بعدها المعرفي والاجتماعي.

المستوى اللغوي والثقافي :

لا نجد لدى الحيوانات مهما بلغت من الذكاء "لغة واضحة الدلالة أو منطوقة بوضوح بل أنّ الحيوانات ترسل أصواتا خاصة في أوضاع معينة مرتبطة بانفعالات محددة. إذ تعبّر الأصوات الحيوانية عن حاجات غريزية وراثية على عكس اللغة الإنسانية الواعية بذاتها.

- لقد فشلت محاولات تعليم اللغة الإنسانية للشامبانزي الذي لم يقدر على نطق كلمة "ماما" رغم عمائل المعطيات البيولوجية والحبال الصوتية. ولقد أجمع علماء النفس الحيواني على أنّ القردة لا تملك قدرات ذهنية أو ملكة تجريد تمكنها من ربط الأصوات واستخلاص المعاني وهذا يعني أنّ القدرات الذهنية وإن اختلفت من نوع إلى آخر فإنها تفسّر امكانية النطق وتعلّم اللغة والتواصل الاجتماعي وتوارث التقاليد إذا ما تعلّق الأمر بالتنوع الانساني.

الاستنتاجات:

- ان خيار المفهوم الميتافيزيقي للإنسان على أنّ له طبيعة ثابتة ومفارقة وكنية.

- إذا أخذنا مفهوم الطبيعة على أنه المكونات العضوية للإنسان فإن هذا المستوى لا يعبر عن إنسانية الإنسان وإنما يعبر عن المرتبة الحيوانية للإنسان.

- إن المكونات العضوية ليست إلا إمكانات توهم الإنسان لاكتساب ثقافة بمعنى أن الثقافة هي التي تجعل من الإنسان إنسانا.

وأن الإنسان كائن تاريخي. فما معنى كون الإنسان كائنا تاريخيا ؟

خامسا: الفكر المعاصر وإثباته لتاريخية الإنسان:

تجاوزت الفلسفات المعاصرة منذ هيكل مفهوم الطبيعة البشرية بمعناه الميتافيزيقي الكلاسيكي باعتبارها ماهية ثابتة وجوهر مفارق يقول هيكل "ليس للإنسان طبيعة ذلك أن هذا المفهوم لا يميزه عن غيره من الكائنات بل له أساسا تاريخيا" (8)

الإنسان كائن تاريخي وتاريخيته تتحدد لحظة وعيه وفعله ونفيه للطبيعة كفكرة في المكان. ولما كان الوعي شرط تحويل الطبيعة فإن الطبيعة ذاتها تصبح موضوع تعقل، أو موضوعا عقليا بعد أن كانت مجرد معطى مادي وإذ ذاك يتكون الوعي عبر التاريخ لحظة نفي الطبيعة إن ما يميز الإنسان عن الحيوان هو التاريخ فليس للحيوان تاريخ لأنه لا ينفي الطبيعة ولا ينفي ذاته. إن عالم الحيوان هو عالم الثبات والتماهي المطلق، في حين أن عالم الإنسان هو عالم ثابته مقولة السلب أو النفي لا مقولة الهوية فالحيوان يعيش والإنسان يفعل أي يصنع تاريخه فالإنسان كائن تاريخي والتاريخ جوهره عقل، الإنسان عقل لكنه ليس

عقلا مفارقا ولا نتاجا أو انعكاسا لما هو مادي وإنما هو عقل في التاريخ كفكرة في الزمان وإذا ما جرّدنا الإنسان من انتاجاته التاريخية الثقافية وخصوصا منها الفنون والأديان والفلسفات "المعبّرة عن روح الشعب" لما تبقى في الإنسان إلّا الجانب الجسدي الذي لا يعبر عن إنسانيته.

وقد أصّلت الماركسيّة الفهم التاريخي للإنسان اعتبارا لكونه يصنع تاريخه بتغييره للطبيعة عن طريق العمل وبناء علاقات انتاجية مستقلة عن إرادة الأفراد يقول ماركس في مخطوطات 1844 "ليس الإنسان كائنا طبيعيا فحسب إنّهُ كائن طبيعيّ انسانيّ وبما أنّه من المفروض أنّ لكلّ كائن طبيعيّ ولادة فإنّ للإنسان كذلك ولادة: التاريخ... وإنّ ما نسميه تاريخنا ليس شيئا آخر غير تولّد الإنسان عن طريق العمل الإنساني". (9)

التاريخ عند ماركس ليس إلّا تاريخ الفعل الإنسانيّ المحوّل للطبيعة إلّا أنّ العمل ليس فقط تحويلا للطبيعة الماديّة وإنّما هو كذلك تحويلا للطبيعة البشريّة يقول ماركس: "عندما يسلّط الإنسان جهده على الطبيعة التي خارجه فإنّه بهذا الجهد المبذول للطبيعة يبدّل نفسه كذلك "يمكنّ العمل كدالّ ثقافي الإنسان من تغيير الطبيعة وتغيير قواه الذاتيّة أي تركيبته العضويّة فتتمو كما تنمو ملكاته الذهنيّة والمعرفيّة فيتعمّق الفارق البيولوجي بين القرد الإنسان والإنسان ككائن ثقافي. فالعمل هو شرط الارتقاء من الحيوانية إلى الإنسانية وأنّ لحظة الولادة هي لحظة اتصال الإنسان بالطبيعة. وفي نفس هذا الإطار (دحض مفهوم الطبيعة

وابتات تاريخية الإنسان) أكدت الوجودية على "كون الوجود يسبق الماهية. (10)" ويعني ذلك أن الإنسان يوجد قبل كل شيء في الطبيعة والتاريخ ومن ثمَّ يحدّد ماهيته فالإنسان كما تتصوره الوجودية ليس له في البدء أي وجود حتّى يمكن تعريفه وتحديدّه والإنسان لا قيمة له إلّا بما يهتمّ به وما يسعى في سبيله وما يؤديه من أعمال وما يقيمه من علاقات. الإنسان ليس قبل كل شيء إلّا مشروعاً وهو ما شرع في أن يكون "وهكذا يصحّ الاعتقاد أنّه لا توجد طبيعة إنسانية لأنّه لا يوجد الـ خالق ليتصورها في ذهنه ومن ثمَّ يعتمد على خلق الإنسان بناءً على تصوّره لتلك الطبيعة" (11)

فليس للإنسان طبيعة ثابتة ومفارقة وإتّما له تاريخ هو تاريخ الوعي بالطبيعة والعمل على تغييرها وهذا يعني أن الإنسان يكتسب ماهيته أو مجموع أفعاله بعد وجوده مع أن هذه الماهية ليست ثابتة بل متغيرة، أكدت البحوث العلمية من ناحية أخرى على أن الإنسان لا يرث إلّا بعض الخصائص البيولوجية، فتنفي السلوكية مع نافيل وراثه السمات الذهنية والمواهب والقدرات وفي هذا الصّد يقول جورج لايرس يولد الإنسان وهو غير مكتمل ويتحلّى هذا في عدّة خصائص بيولوجية مثل عدم نضج الجهاز العصبي إلّا في الثلث الأخير من حياة الإنسان. وعدم اكتمال النموّ الجسدي إلّا بين العشرين والثلاثين من عمره فالإنسان يكون غير مكتمل عند ولادته يعني أنّه قابل لاكتساب ثقافة في حين أن الحيوانات تولد مكتملة واكتمالها يعني عدم قدرتها على التثقيف.

قام أحد علماء النفس الحيواني بأمريكا سنة 1932 بتجربة تتمثل في تربية أحد القردة شامبزي مع الطفل وكان عمر الطفل عند بداية التجربة 10 أشهر ونصف والقرد سبعة أشهر ونصف وعاشا معا تسعة أشهر حيث ينام القرد في السرير ويغتسل في الحمام ويرتدي الملابس ويأكل على الطاولة . وقد أظهر القرد عددا من ردود الأفعال الإنسانية، في حين تمكن الطفل في فترة وجيزة من اكتساب بعض التقنيات الثقافية والتكيف مع المحيط الاجتماعي كما لاحظ علماء النفس الحيواني من جهة سهولة الوقفة العمودية بالنسبة للطفل وميله إلى الرسم وقيامه بعمليات حسائية والشعور من جهة أخرى بالحاجة إلى الآخر. يورد لوسيان مالمسون (12). مجموعة الشواهد التي تنفي توارث الصفات الذهنية بل إن ما يرثه الإنسان ليس سوى الاستعدادات البيولوجية التي تمثل شروط إمكان الثقافة فلماذا لا يكون الطفل المتوحش إنسانا مادام يمتلك استعدادات بيولوجية؟

الأطفال المتوحشون لم يلقوا أي تأثير ثقافي وحرموا بصورة مبكرة من كل تعامل اجتماعي يقول الطبيب ايتار عند مباشرته لحالة الطفل فيكتوردي لافيرون "أن هذا المتوحش يوجد في حالة أدنى من حالة حيواناتنا الأهلية فعيناه غير ثابتين على أي شيء ولا تعبران على أي شيء... كما أن عضو السمع غير قابل لأن يثار من طرف أي صوت مهما بلغ من القوة أو من الهدوء أما صوته فلا يكاد يرسل إلا صوتا رتيبيا خاليا من المعنى..."

إنَّ ما يمكن إستخلاصه من تجربة "إيثار" أنَّ الإنسان إذا ما وجد خارج المجتمع لا يُمكن أن يكون إلَّا حيوانًا بل أدنى من ذلك وأن الإنسان المنعزل منذ حدوثه من الوسط الثقافي ليس أبدًا إنسانًا بل هو كائن لا طبيعي فلا وجود لطبيعة إنسانية خارج الثقافة. والفرق بين الإنسان ككائن ثقافي والطفل المتوحَّش كالفرق بين من يملك عقلًا وهو عاجز عن التفكير ومن يملك لسانًا وهو عاجز عن الكلام ومن يملك أذنًا أو عينًا أو فمًا وهو أشبه بالأعمى والأصم والأبكم، الطفل المتوحَّش هو أقرب إلى أن يكون حيوانًا وأبعد من أن يكون إنسانًا يقول مَالْسُون "فقامة الطفل ووزنه لا تتوقَّعان على الاستعدادات الوراثية إلا أنَّهما يتوقَّعان أيضًا على الظروف الحياتية التي يُوفِّرها مستوى الحضارة ومُعطاهها.... فيكفي أن يحصل نقص في التغذية والحرارة حتى يضطرب النموذج المثالي للنمو بشكل خطير" (13)

هنا يؤكِّد لوسيان مالسون على تفاعل الإستعدادات الوراثية مع الظروف الحياتية المناخية، إذ "الحياة البيولوجية لها شروطها الفيزيائية الخارجية بما تكون وتتكيف" (14) فلا إمكان للفصل بين ماهو بيولوجي وراثي وماهو ثقافي إجتماعي. قد تكون للطفل المتوحَّش طبيعة ونعني بذلك الغريزة الجنسية لكن لوسيان مالسون على خلاف ذلك يُبين أنَّ الشهوة الجنسية ليست مرتبطة بالجانب البيولوجي الجنسي للإنسان فقد سجَّل علماء النفس الإجتماعي في شيء من الإستغراب اللامبالاة الجنسية لدى الطفل المتوحَّش حيث أظهر "ثومكو" تقزُّزًا أمام

الإغراءات الجنسية كما أبد "غاسبار" برودة جنسية قصوى أما "بيتر" فقد أدرك سن الشيخوخة دون أن تظهر عنده رغبة جنسية، إن هذه الأمثلة تؤكد على أنه لا طبيعة للإنسان إلا الثقافة - وما الطبيعة في معناها البيولوجي إلا مجرد إمكانات كامنة أي أن الإنسان يمتلك مجموعة من الاستعدادات البيولوجية تحتاج إلى نماذج ثقافية مُحتمية تحوّلها من الحيز الطبيعي إلى الثقافي فالإنسان كإمكانات كامنة " رقيقة كبخار شفاف" قابل لأن يتكلّم أي لغة ولكن المجتمع هو الذي علّمه العربية. إذ سلوك الإنسان لا توجهه الطبيعة بل الثقافة بمعنى أن السلوك الإنساني يتنوّع بتنوّع الثقافات ويتغيّر بتغيّر المكان والزمان فالإنسان كائن تاريخي والسلوك الإنساني لا يذُل ولا يُعَبّر إلا على الثقافة وإن كلّ ما يُعطي للطبيعة يؤخذ من الثقافة.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

الهوامش والمراجع

- 1- رالف لتون : الأنتروبولوجيا وأزمة العالم الحديث.
- 2- مارغريت ميد : عن حسين فهم قصة الأنتروبولوجيا.
- 3- معجم الفلسفة : كلمة طبيعة.
- 4- رالف لتون : المصدر السابق
- 5- سيغموند فرويد : مقدمة في التحليل النفسي : عنصر الثورة البيولوجية وتحطيم المفهوم الميتافيزيقي للإنسان
- 6- لويس ألتوسر : الفلسفة وفلسفة العلماء العفوية
- 7- جاك مونو : الصلغة والضرورة.
- 8- هيفل : العقل في التاريخ
- 9- كارل ماركس : مخطوطات 1844
- 10- جان بول سارتر : الوجودية مذهب إنساني.
- 11- 12- 13- 14: لوسيان مالسون : للأطفال المتوحشون.

المجتمع المحلي : التراث وعمل أهل البلد (بوعراة أنموذجا)

بقلم : د. الحبيب التهدي (1)

1- مدخل لدراسة التراث المحلي :

لكل مكان أبعاده التاريخية مهما كان، مدينة، قرية أو حتى تجمعاً سكاناً صغيراً. وبالرغم من هذه الحقيقة البديهية إلا أنه عادة ما تستحوذ بعض المدن على اهتمام الباحثين مما مكنها من دراسات ثرية واعتناء خاص. ولقد ساهم ذلك في اتساع حجم المدن واستقطابها لعدد لا بأس به من السكان والذي أدى إلى إقبال كاهل هذه المدن وبروز مظاهر سلبية تمثلت في تخطي قوضوي وفي اختلال التوازن بين الجهات لأن ذلك جاء على حساب الريف والمناطق الداخلية للبلاد.

لعل ما يلفت انتباهنا اليوم وبعد التجارب التنموية التي طبقت تأكدت قيمة التنمية المحلية وضرورة الاهتمام بهذه المجتمعات الجديدة التي أصبحت الرهان الاستراتيجي للتنمية على الصعيد الوطني والقومي. ونظراً لذلك فإن اهتمامنا هنا سيعتني بالتنمية المحلية بمنطقة حضرية نسبياً وهي مدينة بوعراة قصد الوقوف على خصوصية المكان واستراتيجية التحكم في التنمية المحلية .

وتمثل هذه الدراسة دراسة حالة -كمنهجية تركز على وضعية دقيقة- عوضاً عن مفاهيم عامة. وغايتنا تكوين ملف حول حيّ سكني

أو مؤسسة أو مدينة أو قرية أو دوار. هذا فضلا عن اتباعنا هذه الطريقة لتمييزها بوظيفة بيداغوجية تعتمد على الدراسة المونوغرافية وهي تمشّ علميَّ يسلّط الضوء على موضوع مخصوص ضمن خطاب وصفي (2). وهو رهان ما زال مطروحا على كلّ الباحثين قصد إبلاء مسألة المجتمع المحلي الاهتمام اللازم، ذلك أن التوقع تحمّ التعيين في فضاء خصوصي يضع الرهانات الحقيقية للجهة المقصودة.

وفضلا عن دواعي اعتنائي بهذه المسألة والتي سلف ذكرها، كان الداعي المباشر هو جملة التساؤلات التي تعتريني بين الفينة والأخرى مفادها النظرة إلى تاريخ موطني وما كتب عنه؟ ونظرتي إليه ماضيا وحاضرا.

لا شكّ أنّ الصورة تغيّرت نحو الأفضل. فقد كانت بوعرادة في نظري تلك القرية التي أسسها المستعمر، لا تاريخ لها، لكن بعد اطلاعي على تاريخ المنطقة تبين لي أنّ الأهمّ يختلف عن الانطباعات الأولى، وأنّه لا شكّ يوجد خيط ناظم يساعدنا على تفكيك وإعادة تركيب الصورة. هذه الصّورة الجديدة التي ينبغي أن تترك أثرها فيّ وفي غيري، هي تلك التي تدعونا إلى إعادة الاعتبار إلى هذه المدينة وهذه العودة لا تمثّل إلّا ضربا من ضروب إعادة الاعتبار للذات بفضل إعادة الاعتبار للمكان الذي هو رمز الكائن. ولقد تمثّل هذا الرهان في كتابة التاريخ الاجتماعي والسياسي والثقافي والاقتصادي لهذه المدينة.

ورغم رسوخ تاريخ مدينتنا هذه في ذاكرتي وفي الذاكرة الجماعيّة

لأهل البلد بما انطوت عليه السنون من حوادث الطفولة حتى هذه السن تلك العهود التي تميّزت بالمرح، بالترفيه، بالتضامن مع الأهل في السراء والضراء. غير أنّ الأهمّ فيما يشدّنا إلى موطننا هو الحنين إليه بأبعاده المختلفة، وبناء على ذلك ارتأيت من الكتابة فيه إعادة للاعتبار للذات وللموطن لغاية تجاوز حالات الإقصاء والتهميش الذي عرفته هذه المنطقة في السابق والتي ولدت النعمة والحنية لدى أهلنا مما جعلهم يفكرون في هجرتها والكلّ يلقي بالمسؤولية على غيره دون أن يتجهوا إلى نقد الذات بالأساس، هل هم مقصرون في النهوض بأنفسهم وأخذ زمام المبادرة؟ خصوصاً وأننا الآن نجد طاقات عديدة يمكن أن تشع داخلياً وخارجياً خصوصاً وأن المخاوف عديدة وجب أن نقطع هذا الإقصاء من جهازنا النفسي ونبادر بوصفنا مواطنين أحراراً (3) بالحفاظ على مكاسبنا بالإضافة والتطوير.

ولعلّ فعل أهل هذه المنطقة ورقياً يظلّ رهين أصحاب الأفكار من أهاليها من حيث التخطيط والانجاز. ذلك أن وضع خطة عمل سواء في مجال الفنّ من أدب ومسرح وغيرها أو في مجال النشاط الجمعياتي بما له علاقة بالنشاط الفلاحي (شأن القيام بدراسة حول كيفة استغلال مياه الريّ ودوره في النهوض بالإنتاج) والأمر ذاته يتعلق بطريقة العناية بالثقافة المحليّة شأن التعبير عن التراث، والعادات والتقاليد.

فالتاريخ جزء لا يتجزأ من مكونات الهوية المحليّة، ويعدّ حافزاً إلى الاندماج في نسق الحداثة والتقدّم بما يتيح من إمكانيات مهما كانت

لا شك أنها عميقة في مضامينها. ولذلك فإننا أردنا بهذا البحث تأكيد أهمية العودة إلى الإرث التاريخي للجهة ببعديه المادي واللامادي قصد استلهامه وحسن توظيفه في تأسيس مواطنة يكون رهاؤها الأساسي الاضطلاع بالمسؤولية من أجل إبداع الوطن نصًا وقولا وفعلًا.

2- تعريف التراث المحلي :

تعتبر مناسبة "شهر التراث" فرصة سائحة لإطلاع على خصائص الجهة فاحتفالنا بهذه المناسبة يعدّ ضربا من الاعتزاز بما يمثل كياناتنا الثقافي ويزيدنا ترسيخا في هويتنا المحلية إنها نافذة تمكننا من اكتشاف ما يميّز ماضينا وحاضرنا ويؤرخ لوجودنا بمختلف أبعاده. وهي فرصة تتاح لنا للاطلاع على إبداعية المخيال الجماعي وما يحقّقه من متعة وبهجة لا نزيدنا إلّا شعورا بأصالتنا لأن هذا الموروث يهّم الجميع. فهي آثارنا تدلّ علينا وتشيد صرخا لوجودنا فموطننا ليس تريا بما احتواه من آثار بربرية أو بونية أو رومانية أو عربية إسلامية فحسب بل أيضا بما هو طبيعي وبما هو تراث لا مادي يروي أدق تفاصيل حياتنا اليومية.

ولعلّه من المفيد أن نذكّر بتعريف التراث متعدّد المعاني: إنه يعني ما تناقلته الأجيال وحافظت عليه بكل الطرق، وهو أيضا الثقافة والأمثال والتقاليد والعادات والحكايات الشعبية والأغاني مختلفة المضامين. فالتراث ليس كما يعتقد البعض مجرد آثار أو معمار مادي أيضا في بعده اللامادي وما يتوارثه جيل عن جيل. ذلك أن ما يعيننا ليس الأشياء في حدّ ذاتها وإنما كيف نكون نحن في علاقة مع هذه الأشياء وهو ما

يؤدي بما يؤدي معنى في طريقة تنظيم الحياة وتطويرها نحو الأجدى. فأبي معنى للتراث إذا لم يستطع أن يحافظ على مركزته في حياتنا؟ وما قيمة وجوده إذا لم يستطع أن يرتقي بالإنسان حاضرا ومستقبلا ولم يستمر في حياتنا؟

إنّ التراث -في تقديرنا- هو ذاك النسيج المتراكم من الخبرات. إنّه حفظ وتطوير وإبداع من أجل الحصول على الأسمى والأفجع وهي حينئذ خصائص من مظاهر التراث. فحيثما حللت وجدت ما يعبر عن هويتنا النابضة بالمعنى تضارع في بسالة مظاهر الغزو عدا ما يمكنه أن ينفعا فيما يعرف بمسألة التماقف والتفتح شريطة عدم الانفصال عن الأصول المؤسسة لهويتنا. وما محاولتنا هذه إلاّ رغبة في استعادة هذا المعين واستلهامه، وعليه فإن الكتابة أو التفكير في مسألة العادات والتقاليد أمر جذاب وممتع وهام لما يوظفه من شعور بالمسؤولية في الحفاظ على مرجعيتنا الثقافية التي تنحطّم عليها كلّ أشكال الغزو والاستلاب الثقافي.

والتراث يمتلك سلطة على المجتمع بما أشار إليه M weber حيث تحدّث عن سلطة التقليدي أي سلطة إرث الأزمان الماضية (4) "Autorite Traditionnelle" فالعادات والتقاليد تتميّز إذن بأنّها ملزمة وتستمدّ قيمتها الأخلاقية مما أرساه الأجداد ونشأ عليه الأفراد. ولعلّ أهمّ وسيلة تساهم في تخليد التراث -فضلا عن الوسائل التي أسلفنا- هي التناقل الشفوي بما يتميّز به من يسر في طريقة الاستيعاب

كالأمثال الشعبية والألغاز والحكايات والأغاني والممارسات اليومية وما هو معيشي. وتتدعم أهمية التراث بما يضيفه من أبعاد إيجابية شأن إحياء الرموز المعبرة عن الهوية والتي بدأت تتعب في ظلّ الهيمنة لكلّ ما هو دخيل لا ينسجم مع هويتنا الخصوصية.

وما هو ملاحظ أنّه كان من المتوقع أن تتجاوز التراث في ظلّ العولمة وتأكيد الحداثة والعقلانية، لكن على العكس من ذلك، تأكدت أهمية الخصوصيات المحليّة والمخزون النفسي والطبيعي والمادي للمجتمع التونسي. والآن انطلاقاً من منهجية الفصل والوصل مع التراث نعيد تأكيد أمر حيويّ وهو حاجتنا لدراسة علميّة لهذه المسألة. وما يكون هذه الخصوصية هي العادات والتقاليد والطقوس والحكايات الشعبية والأمثال العاميّة والأساطير والحرفات. لهذا كما نرى نحتفل بشهر التراث ونحن نطرح على أنفسنا العديد من الأسئلة.

فماذا يمكن أن يمثله هذا الاهتمام المتزايد من قبلنا بهذا التراث؟ ما هذا الحنين إلى ما هو ماضٍ فينا؟ أليس في ذلك محاولة استرجاع ذكرى أو كسب ثروة معنوية مشتركة تتمثل في التمتع بمراثنا الرمزي بما هو ملك لنا جميعاً.

وانطلاقاً من هذه الأسئلة نريد أن لا نكتفي بالاطمئنان لهذا التراث بل نعمل على تواصل الإبداع والابتكار من صلبه ومن عمقه وذلك بآليات نقده لأن ما يتخذ التراث من الموت والاندثار هو صهره في ما نبذع من معمار أو فنّ أو لباس أو غذاء...

إنّ الهدف من هذه المقاربة هو العمل على إعادة الثقة في هويتنا في زمن تعصف فيه أزمة المشاريع الجماعية في ظلّ عولمة عمياء تأخذ أكثر مما تعطي وتطمس أكثر مما توضح وتدمر أكثر مما تبني وهي محاولة لامتلاك موروثنا المدوي الذي جاء الوقت لكي نتصالح معه فهو يعبر لنا عن شخصيتنا المحليّة فهو ملاذ لنا لنعرف به أنفسنا في عالم بلا مرجعيّات ولا أسماء ولما لا أن نجعل منه تراثا يشدّ له الانتباه في كلّ موقع بالكون.

3- التراث المحليّ في بوعرادة بين الثابت والمتغيّر :

التراث المحليّ في بوعرادة يشترك مع سائر المدن في البلاد التونسية في نفس الخصائص ولكن هذا لا ينفي وجود بعض المظاهر التي تميّز بها هذه المدينة عن غيرها ويعود ذلك إلى خصوصيّة المكان والزمان والطقس وحركة السكان ماضيا واستقرارهم في هذه المنطقة بالتحديد وتجتمع كلّ هذه الخصوصيات في إضفاء نكهة خاصة على العادات والتقاليد والتي يمكن أن تساعدنا على توجيه التنمية المحليّة في مختلف الجوانب الاجتماعية والاقتصادية.

وتعدّ بوعرادة من المناطق الفلاحية في تونس ولذلك يعتبر النشاط اليومي فيها معتمدا على الفلاحة تماشيا مع طبيعة المناخ والغطاء النباتي وكذلك المياه. وكذلك وفق التركيبة الاجتماعية لما تنطوي عليه من وجود انتماءات قبلية كلّ له إقليم خاص به وبوجود ولي وزاويته وهو عنوان الوحدة بين منتميهيها. غير أن وجود المستعمر وما أحدثه من

تحضر وأساليب جديدة في غط الاستهلاك والتصرف أثر على فكرة التحكم في المجال وشتت هذه القوى المحلية. ولكن هل استطاع المستعمر أن يحدث تقاليدته؟.

رغم ذلك فلا تزال بعض العادات والتقاليد موجودة في هذه المدينة ذلك أن الموسم الفلاحي للزرع والحصاد يبدأ بطلب الماء عند الجفاف. حيث يخرج الصبية في شكل مسرحي ينشدون أغنية "أمك طنقو" كما يخرج الكبار إلى الحقول لصلاة الاستسقاء. أما في موسم الحصاد فعادة ما يتوج الأهالي جمع المحصول بإقامة "الزردة" والأعراس التي ترتبط بمعنى الإخصاب وطلب البركة في ضرب من الطقوس الاحتفالية .

نجد إضافة إلى ذلك نشاطا بتماشي وطبيعة المنطقة مثل جز الصوف والحلب والنسج و صنع الخبز كما نجد اعتماد الأهالي في المداواة على الطب الذي يعتمد على الأعشاب ولا زالت في هذا الوسط تسيطر فكرة الاعتقاد "العين" أو ما يصطلح عليه "بالنفس" والتنظير والوشم والجن وكل ما له صلة بالسحر. وتعدّ طريقة التأمل في اتجاه الرياح والنجوم وسلوك بعض الحيوانات مؤشرا يساعد أهل المنطقة على معرفة خصائص المناخ والأحوال الجوية. وهذا كله يشكل ذهنية الأفراد اللاواعية . كما يجب أن تكون من مميزات الحياة في الريف وجود ضيعة بها مورد للمياه كالبر بناعورته الشاخنة أو محرکه الحديث. بالإضافة إلى وجود عين أو سد أو وادي أو بحيرة.

كذلك تربية الأغنام والأبقار، فلا يجب أن نستكف عن شم رائحة "الروث" إذا كان هو نفسه يمكن استعماله مثل مواد سمادية تساعد على تخصيب التربة. وبالنسبة إلى الناظر إلى الضيعة فإنه يشاهد هندسة "نادر الثبن" فلا مجال أن نشاهد اليوم مظاهر سلبية خاصة عند دخول بعض الضيعات كالأوساخ وبقايا آلات لم تعد مستعملة وأصبحت خطرة على المحيط الصيد الذي ألم بها وكان من الأحدى أن يتخلص من ذلك وتغرس في مكانها زهور ورياحين. أما ساحة الضيعة فهي مرتع للدجاج والديكة والكلاب ولكل أنواع الفراغ والطيور فما أجمل أن نرى في إحدى القمم طير اللقلق (الحاج قاسم) الذي يعيش في الضيعة.

وهذا النشاط الفلاحي يتطلب وجود سوق أسبوعية (ملتقى الأخبار <http://Archivebeta.Sakurrit.com>) بوجود "البرّاح" حيث يتولى شخص (إلى الآن بالمناداة في السوق فهو يلعب دورا في الاتصال ونشر المعلومات). واليوم يمكن أن نفكر في توطين الريفيين في مكانهم عندما نوفر لهم بعض الخدمات (المدرسة، الترفيه...) واستغلال الإنتاج المحلي وترويجه كالصنوبر من خلال ثمرة "الزقوقو" والزيتون وزيته والنباتات الطبية كالكليل والشيح والزعر "الخبيزة" ... كما أن اللباس يكون أيضا من إنتاج الصوف حيث هو طبيعي وصحي فنجد البرنس والغطاء في فصل الشتاء والملية التي هي رمز للمرأة البدوية ولكن من تطوير هذا اللباس حتى يتماشى مع العصر.

ولعلّ العودة إلى كتابة تاريخ بوعrada، والغاية من الدعوة إلى ذلك تكمن في ضرورة استثمار الماضي في الحاضر. وحسبنا ما تميّزت به الحضارات القديمة. فقرطاج مثلاً راهنت على الفلاحة، إزاء منافسة اليونان لها في التجارة البحرية وما أحوجنا أن نتخذ هذا الرّهان سبيلاً نقدي به لتطوير مدينتنا. زد على ذلك ما يرويه التاريخ عن اعتناء الرومان بالمدن بالموارد المائية قصد إحسان استثمارها فمدّوا القنوات وأنشئوا السدود وغرسوا الزيتون والكروم والحبوب وهذه الخصائص تفيدنا في عصرنا الحالي خاصة في الزراعة البعلية.

أمّا على المستوى المدني فإنّ المواطن الروماني كان يتطوّع في إنجاز مشاريع البلدية فهو يمتلك وعياً بقيمة المدينة التي ينتمي إليها وذلك حسب نقيشة عثر عليها قرب قوس النصر بأردي الاسم القديم لبوعrada.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

غير أنّ أهالي بوعrada لم يتوارثوا مثل العادات التي سلف ذكرها فحسب وإنّما وارثوا عن الرومان بعض العادات الأخرى منها على سبيل المثال عادة "خطف العروسة" بيد أنّ هذا التقليد بدأ يضمحلّ وعوض بخطف بعض متاع للعروسة مثل أوعية ماء أو آنية أو صحن... وكذلك رشّ قاعات المحاكم بالماء قبل افتتاح جلساتها وهي عادة رومانية (5) وقد اتخذت هذه العادة مسار آخر تمثل في صبّ الأحياء الماء على قبور الموتى أو سكب الماء وراء المسافر اعتقاداً بعودته سالماً هذا فضلاً عن مرافقة هذه العملية ببعض الأدعية والصلوات. فالماء رمز

الحياة والانبعث وهو عنصر مطهر وهو يستعمل بالإضافة إلى ذلك في العبور إلى المجال المقدس.

وفضلاً عن النشاطات الفلاحية وغيرها في هذه المدينة فهي تتميز بمجملتها من الألعاب التي تربطها بالفصول وبمتميز الجنس والعمر ولعل أهم هذه الألعاب "بقرة ولدت" كما نشأت بعض الألغاز والحكايات الشعبية التي كوّنت المخيال الجماعي لأهل البلد وأثرت في أعمالهم.

أما على مستوى التربية فنجد ظاهرة التخويف بسلطة الأب والغول والجن وهو ما يتنافى والتربية السليمة في يومنا هذا. بحيث تسعى الأطراف المعنية بتحميل الطفل المسؤولية وتعوده على احترام قيم التعايش واحترام القوانين المنظمة للحياة الجماعية.

وضمن هذه التربية التي تسود في المدينة يتوارث الأجيال بعضهم عن بعض العادات فيها احتقار الذات فعندما يتحدث الواحد عن ذاته يقول المتحدث "أعوذ بكلمة أنا" وهذا يتناقض مع مبدأ تدعيم إرادة الفرد والإقرار بقدرته على الفعل والبذل في سبيل المجموعة. كما ينظر إلى المسن نظرة احترام وتوقير حتى وإن بدا على خطيئته وهذا الأمر فيه استنقاص من شأن الطفل الصغير وقمع قدرته الحقيقة فيقع زعزعة القناعات.

كما تسود ظاهرة التقرب من الأولياء الصالحين وأضرحتهم فهو شكل من أشكال "تحكم الأموات في الأحياء" (6) في حين يعد الأمر ضرباً من الشرك على المستوى العقدي فضلاً على أن هؤلاء ليس لهم

أي نفوذ لتحديد مصير الأحياء.

وهذه الممارسات تتخذ أشكالا متنوعة وفضلا عما أسلفنا تنغشي ظاهرة التطير من بعض الأشخاص أو الحيوانات أو الطيور أو الأشياء واتقاء العين أو الحسد بوضع سمكة أو الخمسة على عتبة المنزل أو تعلق تيممة في رقبة الشخص. أما على مستوى تسمية المواليد الجدد فعادة ما يتم ذلك وفق ما تحدده الأبراج أو ما سمي به الجدّ أو ميت حديث له قرابة بالعائلة تخليدا لإسمه. وتستعمل العائلة الرقية أو (التركيب) مع الملح باستحضار أسماء الأولياء الصالحين.

وعلى هذا النحو تنتظم حياة أهل البلد مراوحة بين التحكم في جانب من حياتهم الواعية وكذلك اللاواعية فسعوا إلى تفسير الأحلام لطمأنة الفرد وتوقع بما سيحدث وتتولى هذا المهمة الجدّة أو الأم وفق طرق سحرية ورمزية. وهذه كلّها اعتقادات لا زالت تتحكم في الممارسات والتصورات الاجتماعية وهذا له جذور عميقة تعود إلى الماضي السحيق.

كما يمكن الحديث عن ظاهرة تسمية المولود الجديد بإسم بعض الأجداد رغم أن الاسم في بعض الأحيان غير ملائم وفيه سحرية مما يمثل عائقا لدى الطفل لاندماج مع أقرانه. كما أنّ الأمّ لكي يعيش أولادها توشم لهم كما يستعمل الوشم للتفريق بين الأجناس البربرية والرومانية والعربية كما يمكن التوشيم للشفاء ولا يجب أن ننسى أيضا الحناء .

أما في مستوى الزواج وبصفة خاصة في بعض العادات المتبعة فتتمثل بكاراة العروسة شرطا أساسيا لضمان تعايشها مع زوجها وإعادة الاعتبار لذويها لاثبات الشرف وإن الإخلال بهذا الند الاجتماعي يعدّ سببا من أسباب وقوع العائلة أو العرش بأسره من أسر العار والذلّ. ولقد عدّ الزواج دوما مدعاة للقلق والخوف.

وثمة عادة طريفة يتنافس عليها الزوج والزوجة بالسبق إلى وضع القدم على قدم الآخر قصد السيطرة على الجانب الآخر هذه العادة ضرب من السبق إلى الإمساك بزمام الأمور مستقبلا.

أما في مجال التغذية فإننا نتميز في بوغراة بين خبز "دار" وخبز سوق "سوري" أو "طلياني" والخبز "المبسس" والذي يحافظ عليه لمدة طويلة ولا يكلف المرأة عناء خاصة في بعض المناسبات كعاشوراء. وخبز "الطابونة" و"الغناي" و"الرفاق" الذي لا يستعمل معه الخميرة وعادة ما تكون أدوات من المحيط الذي تعيش فيه المرأة (تملص من الطين الطابونة والغناي). ويطلق على الخبز "كسرة" خبز أو "جردة" أو "قدمة" خبز. ولقد اهتم الأهل بحفاظ على الخبز استنادا على الأسطورة التي تروي مصير المرأة التي استهانت بالخبز واستعملته في مسح قدارة ابنها وقد نالت عقابها فعلقّت في القمر لتظلّ عيرة لمن يعتبر.

ولئن كان الخبز ذلك الغذاء اليومي الذي يعدّ ليستهلك في يومه فإنّ الكسكسي "أو العولة" فتحضرها النساء لكامل السنة خوفا من عوادي الزمان وإنّ المرأة التي لا تدخر هذه "العولة" تعدّ في نظر الأهالي عاجزة

ولا ترتقي إلى مستوى المرأة "الحرّة" بمعنى النشاط والعمل.

والكسكسي أكلة تونسية تعدّ خاصة في المناسبات الكبيرة وفي المناسبات الدينيّة شأن ثاني يوم من عيد الإضحى ويوم رأس السنة المحجريّة وغيرها ويسمى عمل عادة "القديد".

أمّا في شهر رمضان فعادة ما يضطلع "بوطبيلة" بإيقاظ الأهل على صوت طبلة للسّحور ولئن بدا تطوعيا فإنه عادة ما يتسلم أجره ولو رمزيا من الأهالي عند نهاية شهر الصيام وبالتحديد يوم قبل أو بعد عيد الفطر ويصبح قدومه احتفاليّا. أمّا إعلان الإفطار فيتمّ بالمدفع قبل الأذان.

وبمناسبة ذكر الاحتفالات الدينيّة فإنّ النساء لازلن يحتفلن بمناسبة "عاشوراء" أو شهر المحرم ففي هذه الفترة لا يغزلن الصوف ولا تتم الأفراح مهما كانت وتكحل النساء وبعض الرجال الأعين. وتزور النساء المقبرة للتصدق على الأموات.

أما عن محتوى الأغاني الشعبيّة فلا زال البعض منها يتضمن بعض الكلمات التي تعبر عن دونية للمرأة لذلك فالحاجة ماسّة إلى العمل على تهذيبها لجعلها تواكب التغيّرات وتجعل الرجل والمرأة شريكين في الحياة فلم لا يتمّ مراجعة هذا الجانب والذي لا يزال يتواصل في اللاواعي الجماعي.

ولعلّ السبب في تواصل هذه الذهنيّة وهذه الممارسات هي تواصل الأمثال الشعبيّة الرائجة والتي ينبغي أن نتجاوز الوجه السلبي منها

وخاصة تلك التي تكتب على مزينات جدارية فرغم ما تتميز به من جمالية الخط العربي ولكن قد تحتوي على قيمة سلبية كالتواكل أو الصبر في غير محله. لذلك ينبغي أن تختار ما يدعم قيم نحن في حاجة إليها كالصبر والتضامن والمحبة والتفاهم وأفعال الغير.

4- قراءة أولية في استلهام التراث الغلّي :

يقف الإنسان متسائلاً إزاء التراث عن طبيعته فهل أنه مجرد موروث ماضويّ يجب القطع معه أم أنه من الضروري الانتفاع به حسب مقتضيات الحاضر وما يخول لنا من استشراف المستقبل؟

لن نبحث كثيراً عن منهج الإجابة أو عن مضمونها إزاء هذه الجدلية ذلك أن التراث ليس إلّا مخزوناً نفسياً يكون الكلّ الاجتماعي والفني والثقافي وكلّ ما له صلة بالذهنيات والممارسات ويميز خاصة في أنماط التصرف في حياتنا اليومية وفي أغلبه يتم بطريقة لا واعية.

وبناء على ذلك فقد يساعدنا على قراءة التراث فهم الشخصية القاعدية للفرد من أخلاق ومعتقدات وأفكار ولكن الإحراج المنهجي هنا هو هل من ضروري أن نستقي مظاهر الخرافات والأوهام وكلّ ما يتناقض مع الحداثة والعقلانية وكلّ أنواع البدع الذميمة؟

لقد حاول عثمان الكعاك أن يميّز بين ما هو شرعي أي الذي يعود إلى القرآن والسنة والفقه والبدعة المستحدثة والتي تعود إلى متبقيات الماضي والتي لا تنسجم مع تعاليم الإسلام ويستثني من ذلك الماضي الذي لا يخالف الإسلام ويسمى لذلك عرفاً ثم تحدث عن ما أسماه

"بعمل أهل المدينة". (7)

وهذا المفهوم هو الذي تنبناه في عملنا فعمل أهل المدينة يشير إلى خصوصية المحلي وقدرته على تحقيق التنمية الاجتماعية.

أن الأمر المناط بعهدتنا هو العمل على تسجيل هذا التراث وتوثيقه ونشره وتعريف به ثم نقوم بدراسته وتفسيره ونقد ما يستوجب النقد أي كما يقول محمد عبد الجابري: أن نطبق عليه منهجية الفصل والوصل. فصله عنا ووصله بنا ليكون معاصرا لنا وهذا يتطلب بيداغوجيا متطورة في التربية على التعامل مع التراث لأن أغلب ممارساته تتم بطريقة غير واعية وقد يتخذ أشكال معاصرة ويتعايش مع أرقاها تطورا.

ويبقى التراث الفني بصفة عامة والتراث الموسيقي بصفة خاصة من أكثر المجالات التراثية القابلة للإستلهام والتهديب لأن تأثيره يكون بالغا على النفس لما لها من قدرة على اختزان خصائصه.

ولعلّه بهذا يحقّ لنا القول أنّه يمكن لـ "الثقافة المحليّة من مواجهة العولمة" وذلك من العودة إلى "الدفع العائلي والطعام الملائم لتقاليد أهل البلد واللباس المصنوع والمصمّم بأنامل محليّة وباختصار "محيطه الاجتماعي والثقافي المألوف والذي قدره حفّ قدره" وكذلك محاولة كلّ واحد فينا تجديده وتطويره فالحفاظة على الروابط التضامنية ولهذا يمكن القول أنّ الثقافة المحليّة هي "عبارة بناء يقاوم رياح العولمة العاتية" وذلك من خلال التزامنا بالمشروع المحلي والاندماج في مجتمعاتنا و"تعدّ

التنمية الجهوية مؤسسة تعمل لغاية تطوير المجتمع من حيث هو جهة ومجموعة" (8).

ولعله لهذا الأمر ينبغي أن نؤكد ذهابنا إلى أن التنمية المحلية يجب أن تحافظ على خصوصيات الجهة: ذلك أن التجربة أثبتت ما للبيئة من خصوصية بما هي منظومة متكاملة بين عناصرها وإن أي اختلال في عنصر منها يؤدي إلى اختلال في التوازن ككل هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن من مميزات المجتمع المحلي هو أنه يمثل قوة في الاندماج وهي أفضل بكثير من المدن حيث أن قيم التضامن في الأفراس والأتراس لا تزال تتميز بخصوصية هامة من شأنها استثمارها في تدعيم الاستقرار وجودة الحياة.

ومن ثم وحتى نستشرف معنى جديدا وأفقاً نظرياً صارماً تجدر الإشارة إلى أن هذه المقاربة ليست إلا محاولة في ضبط الخطوط الكبرى التي تحتاج إلى دراسة أشمل وأعمق تتناول ما ورد بدقة أكثر وتحليل أضيف. وهي على كل حال لا تدعي الكمال بل لا تزال في حاجة للإثراء والنقاش والنقد حتى نساهم جميعاً في تطوير تراثنا لأنه مسؤولية مشتركة دون أن نستثني أي مجهود مهما كان في إبداع النص الوطن والوطن النص.

الهوامش :

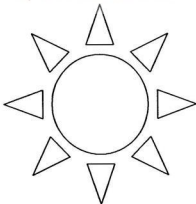
1- دكتور باحث في علم الاجتماع كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. قدمت هذه الورقات بمناسبة

شهر التراث بدار الثقافة ببوعرادة يوم 29 أبريل 2005

- 2- بالنسبة إلى علم الاجتماع تعني المونوغرافيا الوصف والتحليل لمكان : (قرية) أو لنسق (مؤسسة، ملحاً) أو مجموعة السؤال المطروح هو هل يمكن تجزئة الواقع ؟ راجع : Madeleine Grawitz Lexique des Science Sociales Editions Dalloz 7 edition Paris 1999 p 283
- 3- راجع في هذا الصدد بوطالب (محمد نجيب) : المجتمع المحلي وآخرية الدولة الصور المتبادلة بمجلة أفكار بمجلة إلكترونية على شبكة الانترنت
- 4- Grawitz Madeleine op cit p 405
- 5- أبو جهجه (خليل ذياب) : الماء والحياة بمجلة الفكر العربي خريف 1995 العدد 82 السنة 16 معهد الإنماء العربي ص : 132
- 6- عويس (سيد) : عطاء المعلمين نظرة القادة الثقافيين المصريين نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1973
- 7- راجع الكعكاك (عثمان) : التقاليد والعادات التونسية الدار التونسية للنشر 1987 ص : 8
- 8- بشر (بدرة) : ثقافة وطنية وعولمة : التحدي الأكبر في كتاب تونس الأمس وتونس الغد المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة تونس 2002 صص : 657 - 658.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>



التربية البيئية في عهد التغيير

بقلم : عبد المنعم الشاوش

جعل الله الإنسان خليفة له في الأرض في هذا الكوكب النفيس مهد الإنسانية، فأمدّه بجميع ما يحتاج إليه من نبات وحيوان وأدار الحياة في تناسق وتوازن، ومنذ الملايين السنين استغلّ الإنسان موارد الأرض بانتظام و"تعقّل" لكنّه ما فتئ يستنزفها ويحدث فيها اختلالاً لجلّ منظوماتها البيئية، برية كانت أو بحرية حتّى غلّافها الجوي فعلى سبيل المثال فقدت الأرض ثلث ثرواتها الطبيعية خلال الثلاثين سنة الماضية وذلك من جراء التزايد السكاني والاستغلال المشط لهذه الموارد والتدهور البيئي. وأمام هذا الوضع تضافرت جهود البشر في المعمورة للحدّ من التدهور وكانت قمة الأرض 1992 بروجينايزو التي أسفرت على برامج عمل "آجندا 21" لحماية البيئة وتكريس التنمية المستدامة.

ولقد راهن العهد الجديد على الإنسان باعتباره رأس المال وبه يمكن إرساء المفهوم الحضاري الذي جاء به صانع التغيير في البيان المنشود للسابع من نوفمبر "إنّ شعبنا بلغ من الوعي والنضج ما يسمح لكلّ أبنائه وفتاته بالمشاركة البناءة في تصريف شؤونه في ظل نظام جمهوري يولي المؤسسات مكانتها ويوفر أسباب الديمقراطية المسؤولة"

ولقد أولى العهد الجديد اهتمامه بالناشئة والشباب والتربية عامة وبالتربية البيئية خاصة فلا ننسى أنّ تونس من بداية الاستقلال أولت

التربية العناية الفائقة ونالت ببرامجها التربوية المراتب الأولى في حقل التقدم العلمي والاجتماعي والنموّ وكانت التربية البيئية منذ التغيير المنهج المتوخى من طرف الدولة للحد من تدهور المنظومات البيئية بالبلاد.

فالبيئة هي جملة النظم الطبيعيّة والاجتماعية التي يحيط في صلبها الكائن البشري والكائنات الأخرى ومنها يستمدون أسباب بقائهم فالأمر يتعلق بمفهوم يشمل الموارد والمنتجات الطبيعيّة والاصطناعيّة التي تتيح سدّ الحاجات البشريّة، فالبيئة هي إذن نظام ديناميكي في تحوّل دائم يتكوّن من اندماج المكوّنات الطبيعيّة والمكوّنات الاجتماعية.

أمّا التربية فهي عمليّة توجيه اجتماعي عن طريق الإرشاد الناتج من المشاركة في الحياة الاجتماعيّة والتربية البيئية هي عمليّة تربويّة مستمرة تهدف إلى ازدياد وعي الفرد والمجموعات بالمحيط واتخاذ سلوك إيجابي إزاء البيئة والإسهام في إيجاد الحلول الملائمة حاضر ومستقبلا يصبح الشباب ينظر إلى بيئة نظرة شموليّة ويكتسب من خلال مشاركته صفة خليفة الله في الأرض فقد أعلن الرئيس زين العابدين بن علي في 8 جويلية 1988 بقرطاج أعلن على مراجعة نظامنا التربوي مراجعة نقدية تسمح بتحديد الأسباب الكفيلة بتطوير تجربتنا التربويّة في مختلف مستويات التصرّ والتنظيم والتطبيق وفي جميع مراحل الدراسة من رياض الأطفال إلى أرقى الدرجات الجامعيّة". فالإنسان يصلح ولا يهدم، يضيف ولا يححو يقيّم ماضيه عن تبصّر ودون غرور ولا تحامل،

إنَّ أعظم خطر على الإنسان اليوم هو الإنسان نفسه؟! فماهو الإنسان؟! إنه ولا شكَّ جسم مكون من مادة كيميائية ومادة عضويّة لكنّه أكثر من ذلك إنه جسم زائدًا حيّاتيا فهو يشارك الكائنات الحيّة مزايا الحياة من نموّ وتكاثر وتغذية وتنفس، يشارك الكثير من الحيوانات في الحركة والأفعال الفيزيولوجيّة والأفعال الإنعكاسية والأفعال القصدية تجري بدون وعيه وإرادته لتؤدي أغراضا معيّنة): النحل يبني الخلية ويتّج العسل بدون أن يعرف لماذا والطفل لا يعرف لماذا يضحك ولماذا يمشي في نشأته الأولى؟ ولكن يعرف لماذا يبكي فهو فعل (أي البكاء) مقصود، فهو يضع الأهداف ويرسم الخطط لتحقيق هذه الأهداف فالإنسان هو إذن حيوان ولكنه حيوان مريد، عاقل وبما أن الإنسان يتعلّم من صغره فالعهد الجديد أكّد على تربيّة الطفل تربيّة كما صرح به سيادة الرئيس في 15 جوان 1991: "ولم لا نعوّد أطفالنا منذ الصغر على احترام الطبيعة وصيانة البيئة ولم لا نقدّم ذلك في الرياض والمدارس". فالإنسان يسمو على الحيوان بالفروق الجسديّة وبالذكاء وباللغة (ذلك سمي الإنسان بالحيوان الناطق) بالبحث والتجربة بالحياة الاجتماعيّة، بالاختراع، بالجماليّة والإبداع، بالضمير والأخلاق وبالطاعة للعلي السميع-فالطفل يولد ضعيفا فيريه أبواه بعاطفة قويّة حتّى يشبّ ويزدهر وهو بدوره يلد ثمّ يشيخ ثمّ يموت: "لقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا" (سورة الإسراء آية 70).

"وكلّ إنسان الزمناه طائرته في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا" (سورة الإسراء آية 13 و 14)

"هو الذي خلقكم من تراب ثمّ من نطفة ثمّ من علقه ثم يخرجكم طفلا ثمّ لتبلغوا أشدكم ثمّ لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفّى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمّى ولعلكم تعقلون" (سورة غافر آية 68) صدق الله العظيم.

إنّ القرآن الكريم هو للمسلم أعظم كتاب في فلسفة التربيّة والتعليم" (د. محمد فاضل الجمالي "تربية الإنسان الجديد ص 97") وإذا كانت التربيّة تعني بتنشئة الفرد وغوّه في الجنس البشري فحسب، فالقرآن الكريم يعني بتربيّة الموجودات كلّها بما في ذلك تربيّة الإنسان وحين نكرر في صلاتنا يوميا "الحمد لله ربّ العالمين" فعبارة "رب العالمين" تعني مربّي العالمين فاشتقاق "رب" و "ربي" من أصل واحد . فالله سبحانه وتعالى هو المربي الأعظم في الكون، ليس مربّي الإنسان فحسب بل مربّي الخليقة كلّها. فالشمول القرآني يتناول الوجود كله والقرآن موحد لذات الإنسان: فالعقل والعاطفة والفعل لا ينفصل أحدهما عن الآخر ولقد انتهج القرآن أسلوبا تربويا يتلخص في:

أولا في تعريف الإنسان (الفرد) بمكانته بين الخليقة ومسؤولياته الفردية في هذه الحياة الذي جعل لكم الأرض مهادا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى - كلوا وارعو أنعامكم إنّ في ذلك لآيات لأولي النهى (سورة طه آية 52 و 53)

ثانياً في تعريف الإنسان بالخلقية (الطبيعة) وحمله إلى إدراك حكمة الخالق في إبداعها وتمكينه من استثمارها "والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلدكم لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون" (سورة النحل الآيات 5-6-7-8)

ثالثاً في تعريف الإنسان بعلاقاته الاجتماعية ومسؤولياته ضمن نظام اجتماعي إنساني. "واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا... (سورة آل عمران آية 103) و"تعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" (سورة المائدة آية 2)

هذه الأهداف الثلاثة تؤدي إلى معرفة الله وتقوى الله فالتربية الإسلامية تجعل المسلم إنساناً مؤمناً يسير في صراط مستقيم ولقد أوصى الله الإنسان بأن لا يفسد في الأرض بعد إصلاحها.

إن التربية البيئية في العهد الجديد تكرر مبادئ القرآن وتجسم منهج الله في الكون وتحقق له العيش في محيط نظيف يعتبر في حد ذاته حقاً من حقوق الإنسان التي نزلناها منذ التحول المتزلة اللاتقة بها نظراً للعلاقة المتينة التي تربط حياة الإنسان وصحته بنوعية المحيط وسلامته" (زين العابدين بن علي 9 نوفمبر 1991) . فلا نجاح لتحقيق تنمية مستدامة في الحفاظ على بيئة سليمة إلاّ بتأهيل المجتمع عن طريق التحسيس والتوعية وإعداد الناشئة عن طريق تربية مناسبة وهي التربية البيئية.

فدراسة نظامنا التربوي تبرز لنا القيم المدرجة ضمن الغايات التربوية (قانون 29 جويلية 1991) وهي تعد 33 قيمة (أنظر إلى الجدول) منها 20 تساهم في نحت شخصية الإنسان ذلك إن نظرنا إلى مفهوم التربية البيئية الذي أقرته جمعية الأمم المتحدة: "إن التربية البيئية عملية تربوية مستمرة تهدف إلى أن يزداد وعي الفرد والمجموعات بالبيئة وأن يكتسب المتعلم المعارف والقيم والقدرات والتجارب وكذلك الإرادة التي تسهل عليه كفرد أو مجموعة اتخاذ سلوك إيجابي إزاء البيئة والإسهام في إيجاد الحلول الملزمة حاضرا ومستقبلا" (اليونسكو 1987) فالبرامج التعليمية منذ سنة 1991 تبرز اندماج كل القضايا البيئية في شتى المواد التعليمية فهناك 245 موضوعا بيئيا مدرج بالبرامج الرسمية وحجم تدريسها يغطي 20٪ من حجم التدريس العام مع إبراز أن علوم الحياة والأرض (العلوم الطبيعية سابقا) هي المادة الحاملة الأساسية وتمثل 58٪ من مجموع المواضيع، 80٪ تدرس باللغة العربية و 15٪ باللغة الفرنسية و 5٪ باللغات الأخرى. أبرز الباحث توفيق بالحارث صاحب هذا البحث سنة 1993 أن 51٪ من هذه المواضيع هي لكسب المعارف، 21٪ هي لتطوير المهارات و 5٪ لدعم النظريات والإبداع فاستيعاب المسائل البيئية تمثل 83٪ من مجموع المواضيع، فحماية البيئة كانت أهم المواضيع المتناولة في البرامج الرسمية 79٪. وموضوع تحسين البيئة لم يسجل إلا 1٪.

يرى جون ديوي أن التربية هي "الحياة" وأن الطفل يريد أن يعمل،

يريد أن يبيّن، يريد أن يقوم بأفعال هي من النوع المفيد اجتماعيا فالخبرة العملية تؤدي إلى تربية صحيحة، فلو شاهدنا أطفالا يقومون بغرس نباتات في بقعة أرض صغيرة أو في سندان فإنهم يقومون بإعداد التربة وغرس البذرة وسهرها ومراقبة نموّها والحفاظ علىها من الطيور والحشرات.

إنّ الخبرات في المحيط لا تحد ولا تعد فلكلّ مدرسة محيطها ولكل مجموعة خبراتها ومصادر الخبرة تتنوع وتختلف من بلد إلى آخر ومن حي إلى آخر فاللهم أن تعني التربية بنواحي حياة الإنسان كلّها فتعوض المدرسة عما تجده من نقص في حياة الطفل والشاب وخبراته والتربية الحديثة فهي تنظم المعلومات وتربط بين الخبرات وتعتبر أن الأرض هي بيت الإنسان. فالهدف الأمثل والمؤمل تحقيقه بتونس عهد التغيير هو خلق أجيال تتحلّى بالأخلاق الحميدة والسلوك الحضاري مع المحافظة على كلّ مكونات المحيط ولتحقيق هذه الأهداف أرسّت البلاد التونسية عدة وسائل وقنوات وأعمالا يمكن إنجازها:

الوسائل : وثائق- لقاءات- زيارات ميدانية- مسابقات

القنوات : المؤسسات التعليمية والتربوية والإعلامية والجمعيات الحكومية وغير الحكومية والتجمع الدستوري الديمقراطي.

الأعمال : معارض- مخيمات- تظاهرات- تنظيم حملات تحسيسية دورية للنظافة والعناية بالبيئة- احتفالات بالأعياد والمحطات البيئية المحلية والجهوية والعالمية - نشر الأعمال البيئية .

وفي الختام فإن العهد الجديد اهتم بقضايا البيئة وبكيفية غرسها في الناشئة انطلاقاً من المبدأ الجوهرى المتعلق بـ "مركزية" الإنسان وإيمانا بجدوى التعاون الوطنى والدولى وتنفيذا لمبادئ الإسلام ديننا الحنيف الذى اعتنى بالبيئة وأولاهها المكانة الأولى ودعوة الخالق القهار لبني آدم على المحافظة على بيئته بتمامها وكما لها الأرض، مصدر بقائهم إن تونس السابع من نوفمبر مواصلة العزم على تكريس هذه المبادئ وعلى تنمية البلاد والخيرات والمحافظة على أنظمتها الحيوية وذلك بسن قوانين وردع كل ما ينتهكها معولة في ذلك على أفراد الشعب من صغارها إلى شيوخها وعلى مؤسساتها الحكومية ومنظماتها وجمعياتها غير الحكومية والكل معا من أجل بيئة سليمة ومحيط أجمل .

ARCHIVE

المراجع :

- * القرآن الكريم
- * زين العابدين بن علي : خطاب - بيانات من نوفمبر 1987 إلى 7 نوفمبر 1998
- * د. فاضل الجمالي : تربية الإنسان الجديد 1981 دار العربية للكتاب
- * جون ديوي
- * توفيق بالحارث: الكشف المتعلق بالتربية البيئية في النظام التربوي الترنسي : المنهجية والنتائج 1993
- * التجمع الدستوري الديمقراطي : خطة البنية والتنمية المستدامة عدد 11 : البيئة في البرامج التعليم أفريل - ماي 1993 شعبة صلاح الدين بوشوشة المجلد عدد 9 أوت 1996
- * وزارة التربية البيئة والتهيئة الترابية : دليل التربية البيئية
- قائمة القيم المدرجة ضمن الغايات التربوية قانون 1991-7-29
- 1- الوعي بالهوية الوطنية
- 2- الحسّ المدني
- 3- الانتماء الحضاري وطنيا، مغاربا، عربيا، إسلاميا.
- 4- الانفتاح على الحضارة والحداثة والحضارة الإنسانية
- 5- الوفاء لتونس والولاء لها.
- 6- انعدام التفرقة والتمييز على أسس الجنس، اللون، الأصل، الدين
- 7- اللّقاء اللّغة العربيّة

- 8-حذق لغة أجنبية على الأقل لمواكبة التطور والمساهمة فيه
 - 9-الحق في بناء الشخصية
 - 10-الترشد الذاتي
 - 11-التسامح والاعتدال
 - 12-إذكاء الشخصية وتنمية ملكاتها
 - 13-الروح النقدي
 - 14-الإرادة الفاعلة
 - 15-التبصر في الحكم
 - 16-الثقة بالنفس في السلوك
 - 17-روح المبادرة
 - 18-الإبداع في العمل
 - 19-التوازن في التربية (بين مختلف المواد)
 - 20-ممارسة الأنشطة البدنية
 - 21-مواجهة المستقبل
 - 22-مساهمة التغيرات السريعة
 - 23-الإسهام الإيجابي في التغيرات
 - 24-حب العمل
 - 25-التبصر بالقيمة الأخلاقية للعمل
 - 26-غرس العظموح إلى التفوق والإبداع
 - 27-مناعة الوطن
 - 28-المساهمة في ازدهار الوطن
 - 29-المساهمة في إزراء الحضارة الإنسانية
 - 30-التنمية الشاملة
 - 31-بث روح المواطنة
 - 32-الوعي بالحقوق
 - 33-الالتزام بالواجبات
- * القيم مستمدة من الغايات الثلاثة عشر المدرجة ضمن المبادئ الأساسية. الفصل الأول للنظام التربوي. قانون 29 جويلية 1991.

الرسّامة الشابّة : آمال النّاش

حاورها : المنجي الحمدي

رغم تواضع إنجازاتها التشكيلية إلا أنّها قد لفتت أنظار أعلام الفنّ التشكيلي التونسي كالفنّان والرسّام التشكيلي القدير : محمود السهيلي وعبد الرزاق السّاحلي

ومحمّد بن مفتاح...

فلنرفع الستار عن هذه

الرسّامة التشكيلية الشابّة

لمزيد التعرّف عليها من

خلال أعمالها :

س : ماذا يمثّل الرّسّام

التشكيلي بالنسبة لك؟

ج : "أحاول دائما أن

أدخل في صراعات لربط

علاقات تشكيلية داخل

عالم اللوحة ذاتها، فالرّسم

التشكيلي بالنسبة لي ليس مسرحا للمحاكاة وإنّما أسلوبا في التعامل مع

الذّات وتحلّي تفاعلاتها في اللوحة بكلّ مفرداتها التشكيلية لونا ومادّة

ومساحة... مهما تعدّدت واختلّفت المواضيع التي أتناولها."





هكذا عرّفت لنا الرسّامة التشكيليّة آمال النّاش تجرّبة الرّسم التشكيلي بالنّسبة لها، ولكن إن تضرّعنا في مجمل أعمالها سوف نستشفّ لأوّل وهلة عمق العبارة التشكيليّة من خلال ثراء ألوانها وموادها المستعملة.

فاللّون والمادّة هما عنصّرين تشكيليّين أساسيين يرافقانها في كلّ رحلة تشكيليّة.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

اللّون والمادّة : صراع، تضارب

توافق ومُصالحة، تضادّ وتشابه وأتّفاق وفي نهاية الأمر انسجام.

لون فمادّة، مادّة فلون، ألوان باردة وأخرى حارّة، ألوان مُهيمنة وأخرى مُهيمنة، سُمكٌ وشفافيّةٌ مادّة عجيبيّة دَبَقَة ومساحة شفافة وشفيفة...

هكذا تعاملت الرسّامة التشكيليّة آمال النّاش مع مختلف عناصرها التشكيليّة : " لقد تعاملت مع مختلف عناصر التشكيليّة تعامل ذات تبحث عن تحقيق التناغم والتوازن داخل الفضاء التشكيلي بناءً وُبنيةً".

س : ما لاحظته في جلّ أعمالك أنّ المادّة باختلاف أنواعها وطبيعتها وتنوّع طرق استعمالها وفق تقنيات مختلفة كتقنية التلصيق والجمع

والخُذْش... قَهِمَن تَقْرِيبًا عَلَى أَغْلَب لَوْحَاتِكَ. فَكَيْفَ تَبَرَّرِينَ
اسْتِعْمَالَكَ لِلْمَادَّة؟ ثُمَّ أَلَا يَسْتَوِي فِي اسْتِعْمَالِكَ لِلْأَلْوَانِ وَحَدِّهَا دُونَ أَيِّ
تَدْخُلَ لِلْمَادَّةِ تَحْقِيقَ مَعْطِيَاتِكَ التَّشْكِيلِيَّةِ؟

ج : صَحِيحٌ أَنِّي مِنَ الْأَوْفِيَاءِ لِلْمَادَّةِ وَلَكِنْ لَيْسَ وَفَاءً تَكْسِبُ أَوْ امْتِلَاكٌ
بِحَيْثُ أَتَيْتُ أَعْتَبِرُ أَنَّ الْمَادَّةَ هِيَ الدَّرَجُ الْأَوَّلُ لِتَجَرِبَتِي لِذَلِكَ فَأَفْسَرُ
حُضُورَهَا فِي أَغْلَبِ أَعْمَالِي بِالضَّرُورَةِ التَّشْكِيلِيَّةِ، وَلِنَقْلِ أَنَّهَا "النَّقْطَةُ
الصَّغِيرُ" لِكُلِّ رَسْمٍ، وَلَكِنْ لَيْسَ مِنَ الْمَنْظُورِ الدَّوْبِيفِيِّ لِلْكَلِمَةِ ذَلِكَ أَنِّي
أَعْتَبِرُ أَنَّ الْمَادَّةَ هِيَ الْوَسِيطُ الْمَادِّي بَيْنَ جَسَدِ الْفَنَانِ كَقُوَّةِ فِيزِيَايَّةٍ فَاعِلَةٍ
فِي اللَّوْحَةِ وَالْفَضَاءِ التَّشْكِيلِيِّ.

فَعَلَى الْمَادَّةِ أُثَبِتُ خَطَوَاتِي، وَبِالْمَادَّةِ أَتَحَسَّسُ فِعْلَ جَسَدِي.
فَأَنَا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ مَوْجُودَةٌ وَجُودًا مُجَسَّدًا وَمُتَمَدِّدًا، وَوُجُودِي يَرْتَقِنُ
إِلَى وُجُودِ مَادِّي قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ.
<http://Archivebeta.Sakila.com>

إِنَّ تَعَامُلَ جَسَدِي مَعَ الْمَادَّةِ يَتَجَاوَزُ دُونَ الْمَنْفَذِ الْبَسِيطِ فِي عِلَاقَةِ مَعَ
مَسَاحَةِ ثَنَائِيَةِ الْأَبْعَادِ إِلَى تَعَامُلِ جَسَدِي هُوَ فِي عِلَاقَةِ مُبَاشَرَةٍ مَعَ "فَضَاءِ
تَشْكِيلِي" لِيَتَحَوَّلَ جَسَدِي إِلَى قُوَّةٍ تَسْعَى عَنْ طَرِيقِ الْفِكْرِ وَالْحَسِّ إِلَى
حَيَاكَةِ أَبْعَادٍ تَشْكِيلِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ س : حَسَبِ الْأَلْوَانِ الَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا
لَا حَظَّ أَتَى تَمْلِيلِينَ أَوْ بِالْأُخْرَى تَعْمِدِينَ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْأَلْوَانِ
السَّاطِعَةِ وَالْمَشْعَّةِ وَالتَّجَانُّبِ فَهَلْ تَفْسِّرِينَ ذَلِكَ بِتَأَثُّرِكَ بِتَيَّارِ تَشْكِيلِي
مَعِيْنٍ أَمْ إِلَى سَبَبٍ آخَرَ؟

ج: لَا أَنْكَرُ أَنِّي مُتَأَثِّرَةٌ جَدًّا بِالْوَلَوَانِ الْوَحْشِيِّينَ وَالتَّعْبِيرِيِّينَ... إِلَّا أَنِّي



أرى أن الألوان الساطعة والصارخة هي أكثر جرأة وصراحة وأبلغ تعبيراً وأكثر حركة بحيث أسعى إلى أن تكون ألواني ألواناً ركيّة "ألواناً تستمد أكثر طاقة وانتعاشاً" على حدّ عبارة Eugene Delacroix ذلك أنني أرى أنه بشفافية اللون أحاول الوصول إلى شفافية العبارة التشكيلية وهو ما عثر عليه Jean Dubuffet بـ "المرسعات"

ARCHIVE

العجيبة "Les hautes Pateuses"

إنّ تفاعل اللون مع المادة، المادة مع اللون، في تضاد وتقابل بين شفافية وسمك، يساعد الرسامة آمال النّاش على بناء فضاء تشكيلي غني على مستوى العبارة التشكيلية بحثاً عن صدق العبارة وفي صدقها اكتشاف يثري رسمها التشكيلي.

مظاهر إحتفاء الرومانسية في مملكة الشعر

من خلال مجموعة "ورود" للشاعر عادل الطرابلسي

بقلم : عبد المجيد البراهمي

الرومانسية لم تمت بعد بل قل إنها لن تموت أبدا مادام هنالك شعراء لا يقفون نحوها موقفا سلبيا والشاعر عادل الطرابلسي واحد منهم إذ يقدم لك الدليل من خلال مجموعته الشعرية "ورود". بالرغم من زخم العصر وزحف التقنيات وانشداد الإنسان إلى كل ماهو مادي وشيوع ظاهرة الحب = المصلحة . أنه يدعونا بصوت عال بأن نتقاسم معه الحب الصادق والرؤى الحاملة لمستقبل سوف لن يبقى له إلا شعراء الكلمة النبيلة والصادقة الملتزمة.

وأنت تقرأ بعضا من قصائده تحس بأن شاعرنا كأنما هو على خطى مخائيل نعيمة أو ايليا أبي ماضي وخلييل مطران فتشذك سلامة لغته وانسيابها وسلامتها ورقة عبارته وانسجامها، فلا تكلف وانتبات بل دقة وعذوبة وإيقاع، إيقاع على نغمات رومانطقية واضحة حيث أناشيد البوح والحب والحياة التي تدعونا أن نعانق الكون ونرفع التحدي رغم الآلام والجراح يقف السيد الطرابلسي في الواجهة وفي مقدمة الصف يطلب لقاء عاجلا ومصريا مع حبيبته لأنه لم يكن خان العهد - كما قال- فيصرخ في وجهها :

أحبك رغم اغتيالك حلمي وهدره مثل دماء القتل

لقد استطاع السيد الطرابلسي أن يمزج بين الحبيبة والقصيدة، فالقصيدة

مفرجة لكرهه وبديل عن عذابه التي أشعلت فيه الحب دينا وأهبت في قلبه حرارة التألق وبلوغ العلياء حتى حدود الشمس فتفاوحت كلماته طيبا كرائحة الندّ فيقول في قصيدته "نار":

أنا قد عشت يا نار

لدين الحب معتقاً

وقلي هام في أفق

إلى العلياء مؤتلقاً

وان الشمس غايته

وان هم أوصدوا الطرقا

فكوني كيفما شئت

فقلني للهوى حلقاً

وطبع الندّ شيمته

أتى للعالم عبثاً

وطيب الند يزدد

ضيوفاً كلما احترقا

لقد كانت ذات الشاعر حاضرة في قصائده بتوظيفه لأحاسيسه ومشاعره الرومانسية بأسلوب أدبي تقليدي ولكن هذا لا يمنعنا من القول بأن هناك شواهد حديثة إذا استقرنا صيغته التعبيرية نجد الومضات أخضعها للتفعيلات الخليلية. هكذا أسس قصائده لتؤلف علاقة جدلية بين هوية النص في الشعر الرومنسي، وصيغة التعبيرية وسرديته وخضوع صورته لمجاور عاطفية متقاربة ومنحصرة في الحب والعشق والحياة، ولكنه



في هذا السياق يكون الشاعر قد حذا طريق الشعراء الشبان الذين ليست لهم لحظاً الآن خصوصية ما في الكتابة الشعرية حيث أن هناك تشابه في محاور نصوصهم من مجموعة شعرية لأخرى وليس هناك تنوعات مستقلة كالتّي ظهرت في مطلع السبعينات من القرن الماضي. والجميل في مجموعته الشعرية "ورود" هو أن الطرابلسي قد استفزنا بأسئلة لا يمكن الإجابة عنها إلا إذا أعاد هذه التجربة لنعرف إن كان لجوئه إلى الرومانسية يعدّ ذلك من قبيل الاستعارة أم إعادة انتاج لها أم احتماء بها أم دفاع عنها باعتبارها أصبحت ثابتة من ثوابت الشعر العربي التي إتبعها أدباء المهجر؟ ولكن هذا لا يحجب عنّا الحقيقة من أنّ هناك قصائد كثيرة تشد النظر بهذه المجموعة الشعرية التي هي فعلاً جديرة بأن تقرأ ناهيك وأن السيد عادل الطرابلسي هو واحد من الشعراء القلائل الذين أثنى عليهم كبار الشعراء والأدباء. كالأستاذ محي الدين خريف الذي قال : أنا أهني بوعرادة وأباركها بميلاد شاعر جديد، كان ذلك مرة في ملتقى الإبداع الأدبي بزغوان كما أثنى عليه تقريباً بنفس الشيء الدكتور محمد الهدوي وتأتي قصيدة : بطاقة حبّ (الصفحات 28/29/30) كنموذج خالص لرومانسية هذا الشاعر نود التركيز عليها بقليل من النقد :

عنوان القصيد : بطاقة حبّ

أين العهود الذي ناشدتني زمنا

أين القصور التي أمسيت تبنيها

أين الورود التي زانت رسائلك

أين الوعود التي قد كنت راعيها

أين الأمانى التي رامت عواطرك
 أين الأغاني التي قد كنت شاديها
 كلّ قد اندثرت كالحلم وانقشعت
 ما كنت أحسبه للريح تذيها
 عيناى كم شهدت بالشوق كم ثملت
 سكرى الجفون بلبياك لياليها
 قل هل تمون عليك اليوم تتركها
 نار الدموع تلظى في مآقيا
 أم أن روحي من رامتك مهحتها
 غنت إليك على الأشواك تلقيا
 روح سقتك رحيق الحب حاملة
 هل لا يضرك كأس التوج تسقيها
 أم هل تراك لقلبي ترتضي سحفا
 تمضي السنون ولا تمضي دياجيا
 قلب دعاك إلى فردوسه ملكا
 فيه الزهور أجيني كيف تنويها
 كم قد وهبتك أحلامي موردة
 ملأى المحبة في أسمى معانيها
 واخترت طيفك لي نورا يرافقتي
 ان سرت بعدك أيامي أماشيها
 اني هويتك حتى نخلته قدسا

هذا الغرام بذى الدنيا وما فيها
كانت طريقك وردا كنت أعبرها
واليوم بعدك شوكا صرت أمشيها
آه أحبك ويل الحب أرهقني
كثر جراحي جدًا لست أحصيها
ان كنت حبيبي منك مظلمتي
فلمن بربك مأساتي سأرويه
ان الورود لتدمي كفّ قاطفها

ظلمنا أعده تدمي كف ساقها

قل لي حبيبي كيف بلسمها

ARCHIVE
هذي الجراح، أجني من يداويها

في بنية القصيد ودلالاتها: <http://Archivebeta.Sakhr>

ملاحظة أولى :

نجد شاعرنا ينطلق كالفارس نحو بيداء الحب بشعور مفعم بالأمل في أن تكون الحبيبة التي هام بها وتقاسمت العهود والأمان والأغاني وتبادلت معه الورود في مستوى ما يتطلع إليه، هي ذي فحاة تنقلب عليه كظهر الجن فيصاب بالإحباط والانكسار ولكنه يواجه الهزيمة ويداري هواه بروح عالية، فالقصيد هو استرداد للذات لما شعر بالعجز عن المقارنة المأسوية بين الواقع والحلم بدرجة أولى .

ملاحظة ثانية :

أبيات الافتتاح (3/2/1) تتضمن حالة من الدهشة والاستنفاذ بقوله :

أين العهود ... أين القصور... أين الورود... أين الوعود... أين الأمان...
 أين الأغاني... إنه يكاد يقول ما قاله المتصوف الحلاج: فليس للآل منك
 أين؟! هو يطرح جملة من الاستفسارات ويستطرد السؤال بعد السؤال
 فيحاول بذلك رسم صورة الانتفاض وبالتالي استحضار ذاته الشاعرة
 وهذه عادة كبار الشعراء. وافتتاح القصيدة بهذا الاستطرد إنما يعبر الشاعر
 من خلاله عن عمق حيرته وقلقه لأنه اكتشف نفسه بعد حب كبير عاشه
 كأشبه ما يكون في الحلم في وضعية لا يحسد عليها هي حالة ضعف
 وعجز وتداعي .

وفي الأبيات (5-6-7-8-9-10-11-12-13-14) نجد حالة
 الشاعر لا تراوح مكانها فطفق يذكرنا بمخاضه النبيلة نحوها وحب الصافي
 لها بقوله مثلاً: كم وهيتك أحلامي ورده... ومع البيت الخامس عشر
 ههنا بلغ الشاعر درجة يعبر فيها عن أقصى مدى حسرته وألمه فيقول:
 آه، ويل الحب أرهقني كثر جراحه جداً لست أحصيهها
<http://Archivebeta.Sakhrjt.com>

وفي الأبيات (16-17-18) نجد الشاعر يعود على حيث بدأ فيلوم
 حبيبته على موقفها ولكنه في قرارة نفسه إنما يصالح ذاته ولطابعها الحكمي
 فقد غدت هذه الأبيات من أروع ما قيل في هذه القصيدة.
 ملاحظة ثالثة :

قصيدة : " بطاقة حب " هي على وزن بحر البسيط (مستفعلن فاعلن
 مستفعلن فاعلن) وعادة ما يتناول الشعراء هذا البحر في موضوع يعبرون
 فيه عن مشاعر الحب والامل، والطرابلسي ههنا يكون قد أصاب وأحسن
 الاختيار لوجود نفس ايقاعي طويل ولكنه في ذات الوقت غير شاق، وقد

استعمل الهاء ضميراً خمس مرات في قافية الصدر. وثمانية عشر مرة في قافية العجز فوجود ما يعبر عنه بالتصريح إنما يدخل في إطار الإحتفاء بجمالية اللغة.

ملاحظة رابعة :

عموما تحفل قصيدة بطاقة حب بلغة شعرية بها وحدة نصية تسير مسيرة تامة عمق وجدان الشاعر وبراعته الشعرية ولو لم يكن شاعرنا لما كان حبه هكذا فردوسيا مقدسا كقوله:

قلب دعاك إلى فردوسه ملكا فيه الزهور أجبني كيف تذويها
أو كقوله :

اني هويتك حتى خلته قدسيا هذا الغرام بذى الدنيا وما فيها

وخلاصة القول فالشاعر من خلال هذه القصيدة استطاع صياغة مظاهر الرومانسية بنص شعري طافح بدلالاتها التي تكاد تأسر كل بيت فهي مخاض لعذابه وعنف حيرته وأسئلته التضادية الحلم = الإنكسار، الأمل = الخيبة..".

هكذا كان بناء تلك القصيدة وسند مركزيتها ووحدة النصية التي أخلص فيها الشاعر لعمود الشعر ومناحيه الجمالية .



مقام المقال

شعر : الهادي العثماني

أظلم

على دهشةٍ تغترني

أجزئى رُوحِي

ويغشى على فرحي العابرُ

أقول وأفضي

ولي في فصول المدي ما أقول

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

والزمر صدقي

ولكن ظلالُ المني غادِرُ

وأعلنُ أني

لما تدعون كبيرُ الشكوكِ

وأن أقفوا السرابِ البعيدِ

غداً عبثاً في دروبِ اليقينِ

فألغيتُ غيمته ما طرُ

وَجَدْتُ أَنَا
 وَأَغْنَاهَا هَكَذَا قَبْضَةً مِنْ ضَبَابٍ تَلَا شَى
 لَأَنْشُرَ كُلَّ الْمَوَاعِيدِ - أَحْجِيَّةً مَأْكُورَةً...
 بِسَاوِرِي فَلَقَ الرَّاحِلِينَ عَلَى عَجَلٍ وَالطَّرِيقَ طَوِيلُ
 فَرَادِي قَلِيلُ
 وَبَيْنِي وَبَيْنَ النَّهَائِيَاتِ بَوْنُ
 يَسُدُّ خُطَايَ بِلَدَرْبِ الْخَطَايَا
 وَفَسِي بِبَابِ الْغَوَى سَادِسَةٌ .
 عَلَى شَفَةِ الصَّدَقِ مَاتَ الْكَلَامُ
 فَالْقَيْتُ لِلْعَابِرِينَ السَّلَامَ
 وَمَا بَيْنَ حَدِّ امْرَأَةِ كَابِ الْإِمَانِي أَبَاطِيلَ زَهْفٍ
 وَحَدِّ الْحُسَامِ
 طَغَتْ صَبُوتِي وَاعْتَرَانِي الذُّهُولُ
 فَسَبَّ الْقَنِيلُ
 وَدُنْيَا تَكْشُرُ لَمَّا تَرَانِي
 وَدُنْيَا تَرَاوِدُنِي عَاهِرَةً

أنا... كلُّما،

مراقبي زف فُشَّها، ائْهَرْتُ / اْهَمَرْتُ - انْصَهَرْتُ حَتَبًا
وط. قنِي مَرِيحُ أَشْدَانِهَا العَاطِرَةِ...

أنا المسنجير

بنار اللظى أَكْوِي بالسَّعِيرِ

وَنَأْخُذْنِي الفِشَّةُ الأَسْرَى

وَحِينَ أَرَقَّ كَبْتُ جَنَابَتِي هَلْ فِي

سُحْرَتِ بَأْصِدَانِهَا اللَّاغِيَةِ

وَجَلَّتْني الوَحْدُ أَلْفَ سَلَامٍ

عَلَى مَرِيشِ طَبِيبِ النَوَاسِ حَتَّى كَوُ النَّوَى

كُنْتُ طِفْلاً صَغِيرًا

فَيَا أَيُّ هَذَا الْمَدَى الْمَلْهُمِ

تَعَشَّيْتُ مِنْ وَحْشَةِ الْإِكْتَابِ

وَعَلَّقْتُ أَغْنِيَةَ اللَّمَسَا.

وَأُخْرَى ثُبُوحِ لَسَرِبِ الطُّيُورِ

أُرَى وَمَضَّةً مِنْ سَنَاءٍ بَعِيدٍ

وَأَسْمَعُ نَايَا يَتُوحُ حُرَيَّتَا
وَذِي إِيْلِي تَضَطَّلِي بِالْهَجِيرِ
وَأَطْوِي - أَنَا الْمُنْعَبُ -
دَرْبَ صَمْنِي لِمَوْنِي / وَتَحْتِ صَوْنِي
فَلِي مِنْ دِمَائِي
مَوَادِيلُ أَنْشُودَةٍ فِي الدُّنْيَا جِي
وَأَغْنِيَتْ تَسْبِيحُ دُمُوعِي
مَرَّيَا جِي مَرَّيَا كَوَاهَا السَّعِيرِ
أَنَا مُنْعَبُ / مِثْلُ الصَّمْتِ بَيْنَ الْمَنَاهَاتِ
قُولُوا لَهُدْهُدْ كَمْ فِي دُجَى اللَّيْلِ يَحْرُسُنِي
مِنْ غُرَابِ السَّيْنِ،
وَقُولُوا سَلَامًا
لِرَبَّحَانَةٍ أَتَبَعَتْ فِي الْبَرَارِي
وَسَتَتْ بِاحْتِضَارِي / اغْتِنَارِي / انْكَسَارِي،
سَلَامًا عَلَى زَهْرَةِ الْعَاشِقِينَ...
أَظَلُّ وَحِيدًا

وَهَمِّي بِنَفْسِي لَطْفَ الْإِحْزَاقِ
أَنَا الْعَاشِقُ الْبَاقِي بَعْدَ إِنْهَازِي
بِي لَوْعَةِ السَّكِّ مَرِي الْمَدَاقِ
أَضَعْتُ أَفْجَاهِي... بِدَرْبِ الْيَقِينِ
أَطْلُوا قَلِيلًا

عَلَى بُرْذُخِ الرُّوحِ
تَلَقَّوْا ضَرْحًا وَقَوْلًا صَحِيحًا
هَذَاكَ أَسْنَوِي فِي الْقَرَارِ الْمَكِينِ...
لِحَاثِي الزَّمَانِ
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وَأَخْرَسْتُ بَا إِخْوَتِي
مَذْ صَبَايَ الْمُوشَى بِأَحْزَانِي
تَغْزِلُهَا الرِّبَّةُ فِي الْفَوَادِ
بِنَارِ بَيْعِ أَجْدَادِي خَطَا الزَّمَانِ
صَحَافَتْ أُخْرَى
مُعْتَمَةً مِنْ رُؤْيَى لَا تَبِينُ
طَرَبَتْ كَبِيرًا

لَا غِنِيَّ مِنْ حِلَاءٍ جَمِيلٍ
فَرَأَيْتُ أَطْيَافَ زُفَى الْأَمَانِي
وَدَقَّتْ طُبُولُ الرَّحِيلِ إِلَى بَابِلَ
كَيْ أُرَآنِي هُنَاكَ
وَلِي فِيهَا بَاقٍ لِبَاقٍ قَلِيلٌ...

..... قُلْتُ الْغُرَابُ

وَأَلْقَيْتُ رُشْدَاتِهِ كَالْهَبَاءِ
تَنَاقَشَ لَيْلًا وَرَاءَ السَّحَابِ
تَرَقَّبْتُ صُبْحًا يُزِيحُ الظُّلَامَ
وَشَمَسًا تُبْرِئُ دَجَى عَاتِمَةٍ
تُبْدِي لَيْلًا وَقُشِي السَّلَامَ
تَجْلِي الْبِدَايَاتِ وَالْخَاتِمَةِ
فَعَادَ الْغُرَابُ يَبْتَغِي التَّعِيقَ
وَضَلَّتْ رِجَالُنَا فِي الطَّرِيقِ
فَسَافَرْنَا فِي ظِلْمَةٍ قَاتِمَةٍ.

الشيميم

شعر : علي حتيرة

لا تلوّمي يا نجوم

إن تعذّر في شبابي

ما تخابي

إنه قد أدخل

عهد العذاب

إنه ذابل جدا بغابي

لا تصونه الحسوم

*** **

الخريف في عروقي

قد تجلى

أسقط الأوراق

وتعري الغصن مني

في الأمل

أين تخملني الطبيعة؟؟؟

الخريف كان يأتي

وبروح

مثل حيات السحب

حائرا

كيف يهدم؟؟؟



ARCHIVE صرح مروح

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

قد لهاوت

بعد جولات القروح

ثم في الليل غادت ...

تشعل الجسمر ...

قفوح ...

في ظلام السقم حرقني

حتى تنطفئ الشموع

حنى برقى
فوق ركبي
ما يسلي ..
طفل موتي ...
.. إن للفوت قدوم

*** **

لا تلومي ..
يا نجوم ...
إن تلحفت النظر
ARCHIVE
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

خو أبعاد الغياهب
ضقت ذرعاً
بانسابي
للأمر
ضقت ذرعاً
من شفاء

لم ينم

قد ستمنها الأسرة

والحقن

والدواء ..

قد

غدا

كل يوم

يضرب الداء.

شوقي

كيف؟؟؟

و الحزن قهر

كيف؟؟؟

و الحكم صلد

أن أغيب

في مسارها الغياب



قلبي

كم حرق

في سمائي

لا أرى نجما صديق

الجال كم تقول من علو

والسما. كم تغدوها

السحب

جروني

"الشيمو" كبير

لا فضا...

لا أثير...

جروني في السعير

لا أطيير

لا أمل للعبير

ان للفوات قدوم



*** **

في عذابي

كم خرجت في الروابي

كم نظرت في مضابي

لم يحد صوتي هلاي

فنعالي يا أمي

واذغيني

إن دمي لا يبالي

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

جندوه لا غنيالي

أين أمي؟؟؟

ضو. حالي

سامحيني

قد تشوهت عيالي

أدر كيني

الجان قد غزاني

بقول من هموم

باغثتي

أين أمي؟؟؟

قد أودعك جناني

اعبئي بالدعاء.

واذكرني

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ان ذنبا قد هواني

برصد روحا

تنوح

إن في الآفاق غمسي ..

في الغيوم

إن في الآفاق رمسي

يا نجوم

عطر آخر الحزن العربي

(2)

شعر : صالح الطرابلسي

مطر ...

والجسد المعلل يحس هواها

ينبش في ...

أشلاء الزمن المزدول،

ينجى الأرض،

شناقا ...

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

شناقا ! ...

وعلى خرافتها،

يقرا هزائم من سادوا على

ملكها حقا،،،

حقبا ! ...

مطر ...

ومدن تنهاوى دمارا على

من أي ...

وحامة مصلوبة على

خشبة،

من عدالة قد احترقت كي

لا تعيش،

هذي المواسم العرجاء !

هوذا ...

دمها،

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

يسيل على صدر طفل ...

صرع،

مضج بوحشية قتل

قيصري !

بين موتنين

- انقطع البث،

والشاشة غصت بالتشج -

مطر ...

والجسد المأسور وجدا
ما بين الكبوة والكبوة،
ألفينه ينسج ضليلا ...
ضليلا ...

ورباج، تذخه:
من فكسة في الخليج،
إلى آمة في المحيط! ...
ودروب شنى، تفتاذفه،

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrir.com>

وماهاات ...
تشعب كي تلقية ما بين ظلام
وظلام!

مطر ...

والجسد المنظور بالحزن،

معتلا ...

بركام هزانمة، يسقط ...

يسقط ...

تلميح السقطه...

ينما لك هامه...

يقف...

يقف في قامه حلتة!...

يمضي...

دمه يشخب...

يشخب ثم يعود كي

ينزع في شران

القلب...

يمضي...

يمضي...

يمضي...

عن بعد...

تراه حينه

في مثل فجر يثقف بالشمس إلى

هذي الدنيا!



مذيلة، كي يقطف ...
من غصنها قبله،
النصن من هامنه
كان الأعلى !
والقلبة كانت أبعد من
أن يقطفها !

مطر ...

والجسد المأسور عشقا ! ...
يسقط: فرط الصدمة،

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

لا حركه ! ...

محبوبته كانت

في وهمه منسية ! ...

وهواما،

مطعون بالغبن

مسجون في محشلات ...

ملن فائتة منسية !

مطر ...

طوفان ...

وعواصف إعصار ! ...

متفيا تبقى في

غردتك ،

يا جسد العشق ! ...

ما بين مفايزات الوهم ،

ترحل عبر ضباب ،

قد غمر هذي الرقعة ...

تجلى ، فنجليه ...

تكتب للخبر ...

مبدأ النكودن .



مجمع الجرذان : حديث البعث (2)

بقلم : البشير الرحوي

اليوم الرابع : عظام ...

تخلّق مجمع الفئران حول الزعيم في دوران محموم يقدمون فروض وحزب الثورة والريادة يمضي فيه فتّى الفئران بحديث الوحدة وقوّتها، ويستذكر أبحاد الماضي وبطولات الأسلاف، وحزب الوفاق والتطبيع حزب عارف الجماعة يحذّثهم فيه عن تلاقح الأمم والسّلام الكونيّ. واحتدّ السّجال وتعمّق الخلاف فضحّت المجاري بصحبهم وعادوا على بدئهم ضحيحا ونعيقا: "الحذر، الحذر!! الرأى ما رأيت!! الثورة، الثورة... ! الحكم ما حكمت!!" الوفاق، الوفاق... ! فشقّ الزعيم صحبهم واستوقف انزعاجهم ونادى في القوم: <http://Archieve.org>

- يا أمة الجرذان، دربكّم الآن أمامكم فتحيروها ممّا سمعتم فإمّا الرضى والسلامة وإمّا ثورة ونزاع وإمّا مجاورة وغنم، فانظروا ما أنتم فاعلون!!

فلم يفعل بندائه غير أن أوقد جذوة خلافهم فعادوا إلى صحبهم، فهان عليه قيادهم:

- أيّها القوم، ما أحسب أنكم تتفقون وقد ألفتّم الفرقة والتباين والطاعة ويمارسون طقوس المبايعّة: كان على كلّ جرد أن يحفظ جناحيه إعلانا لطاعته الكاملة للزعيم، ثمّ يقبل يديه في هيئة ركوع ويعقبها بتقبيل قدميه سجودا، ثمّ ينيخ ظهره فيركبه الزعيم إجلالا

ومهابة، يجري ذلك كله بمشهد من صفوة الجرذان، لا يقولون إلا على المباركة والسَّير في ركاب المبايعة... يا لحية المسعى، سحب البساط من تحت أقدامهم وهم غافلون..!

مضى شطر اليوم في المبايعة وتقدم فروض الولاء والطاعة ولما استقامت الزَّعامة مطلقة للحكيم، اعتلى ربوة المجمع وخطب في الجمع:

- يا بني جرد، يا قومي ويا عترتي..! ثقل الحمل واثقل كاهلي وإني بعون من الله وسدادكم ماض إلى خيركم وصلاحكم عزيز عليّ ما لقيتم من العنت، حريص على خلاصكم وإني لأراه على مرمى البصر فصبرا جميلا آل جردان إنَّ الفرج قريب...! ثم نادى بالصَّفوة فجمعوا بين يديه، فحدّثهم كمن يناجي عترته:

- إخواني ..! يا عليه القوم..! فلنقلّب الأمر كلّ منقلب، ولنخض في كلّ رأي، بين لنا الحقّ ونجمل لنا ما كان حقياً...

لم يقو أحد منهم على الردّ فأومئوا برؤوسهم ترحيباً وإكباراً فمضى فيهم برأيه:

- ... أي إخواني..! حريّ بنا أن نعرف أنفسنا قبل معرفة خصومنا، فمن نحن..؟

وبقي صامتا لبرهة كما لو أنّه ينتظر الردّ، فلمّا أن أحابه صمتهم واصل حديثه قائلاً:

-... إنّما نحن أمة من الجرذان، موطننا المجاري وقوتنا التفاياث إن عزّ معاشنا غمضي بأنوفنا نحسّسا، فإن قادتنا إلى غنم غنمنا وإن لم نظفر

رضينا بالفتات وقنعنا بالتزدد.. كذا بعثنا وهكذا دأبنا، فإن ضاقت مزابل بنا فضنا إلى غيرها وما عهدنا الكون تنضب مزابله... هكذا كنا، وهكذا نبقي، فهل أنا في ضلال...؟

فهتف بجمع الفئران: "لا ضلّ رأيك... أنت الزعيم...!". ردائلهم، ولعمري إني لأجده رأيا حكيما، وإني لمجدّ صاحبه ورافع في شأنه... أما داعيكم إلى الثورة، فإني أراه في شطط بعيد، يعدكم بالعزة وما يدعوكم إلّا ذلّ مهين، فأَيّ عزّ تصيبون في موت متربّص وانتكاس أليم، ثمّ إنّنا دعاة محبة وسلم، فأين نحن من الحروب وغورها، فليس هذا برأي ولا صاحبه ثمّ يعلى شأنه أو يرفع في قدره... هذا ما ارتأيت، وبهذا حكمت، فإن رضيت زعامتي أخذتم بحكمي..!

فانفجرت المحاري بالتهاليل، وعلت المناجر بالمباركة: "بوركت زعيمنا.. هذا هو الرأي... هذا هو الرأي...! لكنّ شيئا في نفس فتى القوم دفعه إلى صُراخ مرّ قطع به صخب الجماعة وهتافهم:

-...وأعزّاه..! وشرفاه..! أرفتم ماء الوجه وأسقطتم آخر ورق التوت... أهذا ما حدّثكم به الحكمة، أم هذا دأب أسلافكم... ما أنتم إلّا زمرة من الخونة الجبناء إن بقيت فيكم كنت كصالح في ثود... أعمتكم الغفلة فوقعتكم في فتح من يكيدون لكم إليكم عني فمضى مسترسلا:

-حقّ الآن، إذن، أن نعرف حصومنا، فهل فيكم من يتبني بخيرهم؟ وتحقق في وجوه القوم فإذا هم سكارى أسارى حكمه وتدبيره،

فاسترسل في قيادهم:

-..إنما هم الهررُ عزّاً وفخاراً، توارثوا الطول كابراً عن كابر...علوا في الأرض فبطشوا وما تركو عليها ندّاً ولا قريناً..ما وقفت لهم أمة إلاّ وبادت عن بكرة أبيها فتركوها حطاما وهباء منثورا، ملكوا خير الأرض وحازوا كل كنوزها...أهل حول كانوا، وذوي طول يظلّون...فهل أنا في ضلال...؟

فهتف الجمع: "لا ظلّ رأيك..أنت الزعيم...!"

-قد سمعت فيكم من ينادي أن الحذر..الحذر..! وإني لمباركه ومعملِ حكمهن حقّ على مثلنا أن يهاب مثلهم، ونحن من نحن..وهم من هم..والخوف في مثل هذه المواطن حكمة...وقد سمعت من ناداكم إلى وفاق معهم نبغي فيه فضائلهم ونعرض عن لست منكم، لست منكم...!

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

فانتفض الزعيم من ربوته وصاح في القوم أمراً: "كيف تصفعون إلى من يذمكم ويسلبكم وقاركم وأنتم من أنتم من العزة والكرامة، أم هل رضيتم أن يذمّ زعيمكم وأنتم وليتم وأنتم تبايعون؟". فهبّ الجمع إلى فتّهم وكبلّوه بالأصفاذ والقيود ووضعوه بين يدي زعيمهم ذليلاً كسيراً، فأمر بحبسهن وأرجأ البتّ في حكمه.

وانقضى رابع أيامهم قهقرياً بالزعامة، وانفضّ بجمعهم بعزم المضيّ

إلى اليوم الجديد...

اليوم الخامس : لحم...

مضى الجردان، في خامس أيام وفاضهم، يستقبلون بشائر يوم جديد بداهم المعبر الأخير للخلاص، فكانوا يدبّون في مجلس الوفاض ديب الحمى في الجسم، ويمورون كما الموج، تعلق حناجرهم بنشيد المباركة للزعيم وصوراح السّخط على فتيهم المتمرد على أعرافهم وما حكمت به عقائدهم. وفاضت المجداري هتافاً لما أن علا الزعيم منبر الوفاض ميمناً بشيخ السلامة والحيلة وعلى شماله عارف التطبيع والمصالحة، فقام فيهم خطيباً:

- يا مجمع الفئران، إنه ليوم جلل سيحفظه الآت في الضمير وينحته في الذاكرة، فقوموا تهيّؤوا للبعث وقرّوا أعيننا أن رتق الفتق والتأم الصدع. اليوم نعلي صوت الحق ونرفع أهله إلى عليين، ونبطل الباطل وننزل دُعائه إلى الدرك المهين، يا قومي بمباركتكم وسدادكم جعلت شيخكم وعارفكم وزيري وموضع استشاره الزعامة تستهديهما ونستظلّ بحكمتها سبيلاً للسلامة ومعبراً للرّخاء، أمّا فتيكم فإنّه صوت الرّعب بدبّ في النفوس الآمنة، وداعية لسفك الدّم في زمن السّلم والطّمانينة، إن هو إلّا سوس ينخرُ جسم مجمعنا ويوهن بعد عزم شملنا، فليكن أفراد ولتكن مقصلة فإنّ العضو إذا تعفّن بتر، فتعالوا نجعل فتيّ الفتنة موفدنا إلى الهرر بولائنا وقرّبان انفتاحنا على مُحانستهم ليكونوا مقصلة صفده وبتوصلته، وليكن دمه يداً نغذّها بالمصالحة، وسنرفق وفده ببيان مجمعنا وما آلت إليه سنّة وفاضنا، وإني بعد ذلك معكم من المنتظرين..!

فهبت الجردان بالهناقات كأنما وقعت على فوزٍ عظيم، وراحت

تَجَرَّتْ جملتها الأثيرة كأنما لم تفقه من نداءات المباركة غيرها: "بوركت زعيمنا..! الرأي ما رأيين والحكم ما حكمت..!" وقضى جمعهم بأن يعلّق فتيهم مكبّلا في أغلاله في انتظار يومه الأخير على موائد "الهرر"، ومضوا في إتمام مراسم المباركة والمبايعة حول مشهد الفتي المصلوب كالواقع على وليمة أوغمن عظيم، وكان صوته فيهم كسيرا محمومًا يحاول شقّ ضحيهم في لأي كبير: "أيها الخائنون... أيها الخائنون..!" وانقضى خامس أيامهم بين أهاليهم وأنين فتيهم، وانفضّ جمعهم بعزم الماضي لليوم الأخير...

اليوم السادس: روح...

انتشر بنو جرد بين المزابيل يجمعون ما استلذّوا لوليمة اليوم الآخر وتخبروا من نفاياها زينة يجمع وفاضهم حتى استحال المكان روضة من رياض المجاري تعبق بطيب يكاد نفحه يقتلع الأرواح من أجسادها قنونا، وفاضو في رقص جنونيّ وعيون الزعيم وعضديه ترمق الجمع في زهو وفخار، واستذكروا نشيد يومهم الأوّل، فهزّوا أركان المجاري بصغيرهم:

-أيها الجرذان هبوا قوم فأر فلنحاهر

.....

نحن فتران المجاري نحن أبطال كواسر

.....

كلّنا في الهمّ جرد لا نكابر، لا نكابر..!

واعتلى الزعيم منير الزعامة يعقب بطبيب المجاري، وهتف في الجمع:

-ها قد جدكم، وأنت ساعة عزمكم وبداية مجدكم...

سنتلو بين ستة الوفاض ميثاقا جديدا وعقدا يؤلف بين القلوب العصىة ويمدّ للسلم جسورا لا تميد، هو رسالتنا على مجتمع "الحرر" نبارك صحبتهم ونعظم أسباب مجانستهم، وليكن فيّ الفتنة موفده مكبلا في أغلاله ذليلا كسيرا، عهدا منا أن لا ردة عن طاعتهم، ولا ثورة على حكمهم، فهل أنتم مصنعون..؟

قلب جمع الفران في صوت أوحد: "كلنا أذان صاغية.. فأحكم أنت الزعيم". فأخرج من تحت غبطه بيان الوفاض وملا رثيه من عقب نفايات المجمع في شهيق حادّ طويل، أعقبه زفير مرّ كالاختصار، وتحمشا على الجمع بيان ستهم...
 حدث الميثاق قال:

"إلى سادة الدنيا وكواكبها المنيرة، لا خبا نوركم ولا دالت دولتكم، هذه موثيقنا إليكم وعهودنا لا نخذ عنها:

ما شتتم لا ما شاءت الأقدار فاحكموا إنا نحن مطيعون، نمدّ إليكم بسط المذلة حبا وكرامة، دوسوا وانفذوا، وأنفذوا فينا أمركم، نحن التبع المخلصون، طيبوا نفسا وقرّوا عينا، نحن سياطكم على كلّ مرتدّ أثيم، فأضربوا بنا إنا إليكم مسلمون، تخيروا لنا الدرب إنا متعلّمون، وأرسوا فينا من العقائد ما تشاؤون فإنما الخيرة في ما تختارون والعقيدة ما اعتقدتم، هذه موثيقنا بما سلّمنا وعليها تعاهدنا"

عن مجمع الجرذان

وبتفويض من الزعامة

وعلت الأهازيج ملء المهج طربا بميثاق السلامة وثمرة سنة الوفاض
وانفضّ مجمع الفئران بهتافهم المحموم:

- بوركت زعيمنا... الرأي ما رأيت، والحكم ما حكمت.. الرأي ما
رأيت، والحكم ما حكمت...

وراح الصّوت يتباعد شيئا فشيئا، يردّه الصّدى في أنين ما يزال يفتر
حتى أطبق عليه الصّمت.

كان هاتف بالهرر ينادي: "يا بني "قطيظ" إنّ الجرذان قد احتشدت
وإني لأسمع بينها صوتا يدعو أن الثورة، الثورة...! فأدركوا جمعهم قبل
أن يفرّق شملكم...!"

فقال قائلهم: "مثل هذا اليوم عملنا فلا خوف عليكم بني هرّ، ولا
أنتم تحزنون، ابعثوا فيهم ربيينا الحكيم وألبسوه من الوقار كسوة
سيمضي فيهم بعزمنا ويسوسهم بهدينا".

الماضي يعود اليوم (1)

بقلم : ربيعة وصيفي

وقف محمود يتأمل لحظة وهو صامت أمام النافذة ووجهه يرتدي قناعاً من الظلال. ذلك المنظر الطبيعي الخلاب، وشعر في المناطق الجبلية الوعرة بأنها خلقت المدينة التي يقطنها ورائها في تلك المنحدرات حيث كروم العنب وحقول الزيتون واللوز وبساتين الفاكهة أما في تلك المرتفعات فلم تكن هناك سوى البرية والعظمة. توترت أعصابه بعض الشيء بمجرد أن ألتفت ورائه ليلقي نظرة على مريضته التي جيء بها فاقدة الوعي أول مرة وهو بهم بالخروج من عيادته وكانت المريضة تجلس في قاعة الاستقبال، فطلب منها أن تخبره بسرعة ليكشف على المريضة فعندما رأى الأب وقف برهة مذهولاً. أحس بشعور غريب وكأنه يعرفه منذ زمن ولم يفق إلا بكلمات المريضة:

"هاهي المريضة يا دكتور".

أمرهم أن يدخلوها غرفة الكشف، وفي الحال لي طلبه. بعد فترة ليست بالقصيرة فتح الباب. خرج وهو يتحسر بخطا ثقيلة وطلب من أيها الذي بدى عليه خوف شديد وأمها المذعورة أن تنقل ابنتهما إلى المستشفى حالا إذا كانا يريدان لها العيش. اضطربا الوالدان ورجياه أن يخبرهما حقيقة مرضها. قال في ارتباك ظاهر.

"إن قلبها ضعيف يستحسن أن تنقل فوراً إلى المستشفى حتى نقوم

ببعض التحاليل وهنا ستكون بإذن الله بخير"

جاء بسيارة الإسعاف فحملتها على جناح السرعة إلى المستشفى. كم كان إحساسه غريب؟ إنه لم يشعر بمثله من قبل، ربما الخوف لمفارقتها. كان خلالها يشرف عليها بنفسه كل صباح ومساء ومنذ أول لحظة أخذت العاطفة طريقها إلى قلبه وأحس وكأنه رآها منذ أمد بعيد أو يعرفها وليست هذه أول مرة يراها فيها، ويوما بيوم حتى أحس أنه لا يقدر أن يعيش بدونها ولم يحاول أبدا إخفاء إعجابه بها وهو جلي. تقدم نحو السرير وهو يرمقها بنظرات حائرة. أفاقت من نومها أحمر وجهها حياء خاصة عندما رآته يتفحصها بعينه القويتين الجذابتين ولم يشعر كل منهما إلا والباب يطرق. لقد أقبل الأب وقد رسمت على وجهه فرحة عارمة. سلم على محمود وشكره على العناية بابنته الوحيدة. قال وهو ينظر إلى ابنته التي بدأت بترتيب حاجياتها في الحقيبة للرجوع إلى البيت: "لا أعرف كيف أشكرك فلولا عنايتك بوفاء ما كانت لتشفى".

قاطعه في حزن ظاهر: "بل عناية الله وإرادته ورغبتها في الحياة" التفت إليها. شاهدت تلك الشعلة في عينيه. طأطأت رأسها وانتابها نفس إحساسه. خرج السيد صالح لإكمال الإجراءات في المستشفى فوجدت نفسها أمامه وجهها لوجه وفهمت أنه يريد قول شيء تعرفه، ولكن كلما أرادت الكلام تحس وكأنه يعرف عنها كل شيء فتصمت. أجاها كأنه قرأ أفكارها:

"لا أعرف ماذا أقول أأبارك لك أم أعزي نفسي على فراق لا أدري إن كان بعده لقاء".

لم تنبس بينت شفة. جاء أبوها ليأخذها فمشى معها حتى الباب الخارجي للمستشفى وأثناء ذلك كان يوصيها بأن لا تتعب أو ترهق نفسها في أي عمل. أما العم صالح فقد حمل ابنته ورجع إلى بيته والفرحة تغمر قلبه فاستقبلتهما زوجته فيروز بنفس البشاشة والحبور احتفالاً بشفاء قرة العين.

كلما خلعت بنفسها في مثل هذا الوقت من النهار يذكرها بآخر لقاء مع محمود. كان المنظر وكأنه مسرح بعد لمسرحية رومانسية من القرون الوسطى. هكذا أخذت تفكر وقد أطلقت العنان لخيالها.

طرقت الأحزان باب حياهما واطرقت عن الأكل والشرب وحتى النوم لم يكحل جفניה منذ أيام والفصل شتاء والليالي طويلة في صباح يوم مغيم بالسحب منذرا بتزول المطر جاءت لوفاء عمتها زينب ووجهها يشع حيوية وضحكها المعتادة تسبقها وهي تكبر وفاء بسنة. وجدتما على تلك الحال فاستغربت وقالت لها في حيرة:

"ما بك أنت مريضة أعاودك المرض مرة أخرى"

استدارت وفاء وتعمقت في النظر إليها كأنها تراها لأول مرة وردت وكأنها تمس لنفسها:

"نعم أنا مريضة ولكن مرضي لا يقدر على مداواته أي طبيب إلا الله".

فاشئت استغراب زينب وقالت "مرض لا يقدر على مداواته. مرض لا يداوى مستحيل!".

وقالت وهي مازحة: "أهذا مرض جديد؟ وحديث، فأنا لم أسمع به من قبل"

ردت وفاء في يأس شديد: "كفى يا زينب أنا جادة ليس الوقت وقت مزاح. صديقي أنا جادة فيما أقول"

حينئذ قالت زينب وكأنها لم تعد تفهم شيئاً أو ربما ليست التي تقف أمامها وفاء التي عهدتها.

أنا لم أفهمك ولكن ربما هو الحب إذن قولي لي هذا من البداية. أجابتها بعصبية ظاهرة: "قلت لك كفى مزاحاً وسخرية أنا جادة فيما أقول".

روت لها القصة وما تحتويه من معاملة لطيفة واهتمام كبير قوبلت به من ناحية الطبيب محمود. قالت:

"ألم أقل لك إنه الحب! وكل هذا وقع في غيابي هذه الفترة القصيرة". قالت وفاء وهي مضطربة: "نعم لا أنكر إنه الحب ولكنه حب عجيب وغريب"

تقدمت بضع خطوات وأردفت: "كيف ذلك! لا أدري" وتساءل "المفروض أنا المريضة وهو الطبيب" تنهدت بعشق وأكملت "يعني بعد معالجتني وشفائي وخروجي من المستشفى يتتبع كل شيء".

قالت لها زينب في ذهول:

إلى هذه الدرجة بالك مشغول به إذن لنبحث عن حل المشكلة التي بدت معقدة ولا أظن أنها ستنتهي بسرعة".

بعد فترة ليست بالقصيرة من الزمن وهما بين الرواح والحيء في الغرفة صرخت زينب بمرح: "وجدتها وجدتها" قالت لها وفاء وهي متلهفة وقلبيها يكاد يخرج من بين ضلوعها:

"ماذا؟ أوجدت الحل هاتي ما لديك بسرعة".

قالت زينب برصانة مفتعلة للعب بأعصاب وفاء "لا تتعجلي الأمر ليس سهلاً كما تظنين"

رمتها بنظرة ملؤها الحُبث والسخرية والتفاخر.

سأدلي عليك بفكرتي لو تصلح نبدأ بتطبيقها وأتمنى أن تكون هادفة ارتمت عليها وفاء وأمسكتها بعنف لم تشهده منها من قبل وقالت "كاد يضيع صوابي. هات ما عندك هيا".

قالت زينب وهي تحاول أن تفلت من قبضتها: "تقولي لأملك وأبيك إنك قادمة لزيارتي وبدلاً أن تأتي إلي تذهبين إلى طبيبك في عيادته".

عند ذلك تنهدت وفاء وقالت في حزن وسخط ظاهران "كل هذه المقدمة كادت أن تكون مقالة صحفية لأجل الذهاب إليه بنفسه هذا لا يجوز. فلو كان ممكناً لفكرت في نفس فكرتك السخيفة هته. هيا هيا لنفكر مرة أخرى ولكن إياك والتلاعب بي وبأعصابي" وبعد صمت خيم على الغرفة وكأنها مهجورة انتفضت وفاء "وجدتها، نعم وجدتها فكرة وليس بعدها فكرة". قالت زينب في تناقل:

"اخبريني أينها العبقريّة وتكلمي بإيجاز".

قالت وفاء بجديّة "أتضاهر بالمرض فيستدعى الطيب محمود لمعالجتي وهكذا أراه بسهولة". أجابتها زينب بجديّة: "ربما يفتضح الأمر عند أخّي". قالت وفاء "لا تهتمي فالأمر جد سهل وبدل الذهاب إليه وافترض أمري يأتي على مرأى ومسمع الجميع".

هكذا رسمت الخطّة. باتت وفاء تلك الليلة على أمل اللقاء بمحمود. في صباح اليوم الموالي بدا التنفيذ عندها جاءها زينب. طرقت الباب عدة طرقات فلم يجبها أحد. دخلت مذعورة لتوقضها فوجدتها ملقاة بجانب سريرها وهي فعلا مغما عليها. كانت تظنها أول وهلة تفعل الإغماء حسب الخطّة ولكنها فوجئت بما فعلا مغما عليها مثل أول مرة أدخلوها على محمود فدعوه وكان هو أيضا يفكر كيف يراها ولكن الصدفة التي جمعتهم لأول مرة تكررت مرة أخرى. أقدم لأول مرة دخل فيها دار وفاء وتخطى عتبتها. دخل غرفتها فأحس بمشاعر عنيفة قمر كيانه وهو يعاود رؤيتها وكان قد فقد الأمل في اللقاء بها مجددا. اقترب من سريرها وقد تزايدت دقائق قلبه لرؤيتها وهي شاحبة. أمسك بيدها بغير وعي منه وقرّبها منه شيئا فشيئا ولكنه سرعان ما أفاق من شبه غيبوبته وتذكر أن السيدة فيروز وزينب بجواره وهما ينظران إليه استغراب لتصرفاته. فتح حقيقته في ارتباك وأخرج سماعته وشرع في فحصها. كتب لها وصفة دواء واستقام في وقفته وسألها في تلثم كيف عاودها المرض ثم طلب منها رعايتها وأن تبقى في الفراش مدة أسبوع

حتى يزول المرض أثناء ذلك كانت زينب تنظر إليه بإعجاب وتساءل. لماذا يتصرف بهذه الطريقة أهو أيضا يبادلها نفس الشعور؟ بقيت على هذا الحال حتى ودعهم وخرج ومعه العم صالح وقال له انه سيزورها من حين لآخر ليطمئن عليها وكان الأمر كذلك يأتي في موعد الدواء كل صباح. بعد ثلاثة أيام بدأت صحة وفاء تتحسن وفي صباح اليوم الرابع عندما أفاقت على طرقات خفيفة تفرع باب غرفتها. إذ بالدكتور وعمتها يدخلان عليها وهما مبتسمان وقالا لها في صوت واحد. "صباح الخير" وقال محمود وهو يتفحص وجهها. "يظهر أن اللعبة أصبحت جد حقيقية تتظاهرين بالمرض وإذا به يفاجئك على غير عادته"

كل ما كان أمامها انطباع عن ارتفاعه وعن وجهه اسمر نحيل تلمع عيناه وهو يحدق بها كانت لا تدري ما تفعل أو ماذا تقول جمعت كل شجاعتها وقالت في تلعثم وهي تنظر لزينب في غرابة وحياء وقد كادت تفهم المقصود.

"ماذا تعني بكلامك هذا اتكلمي بالألغاز"

وقتها ضحكت زينب في خبثها المعهود وقالت: "لقد رويت له كل شيء فلا أضنك ستخفين الأمر عليه أكثر من ذلك".

وقف فجأة وارتفع رأسه في نور الشمس المظلة من النافذة. كان مستحيلا على وفاء أن تشاهد تفاصيل مظهره. شعرت بإحساس غريب اتجه هذا الأسمر الغريب القريب من قلبها.

قال محمود وهو على هيئته هته:

"نعم أنا أيضا كنت أبحث عن وسيلة لأراك غيرها ولكن الأقدار جمعتنا من غير موعد مرة ثانية".

هكذا فهم كل من محمود ووفاء مشاعر الآخر وتمت أيام الأسبوع كاملة وفي آخر مرة كان لن يعود بعدها طلب العم صالح وزوجته فيروز أن يزورها لتناول الطعام معهما في يوم إجازته الأسبوعية. وافق محمود وقبل الدعوة شرط أن لا يأتيه أمر مريض مفاجئ.

ولم يبق في الغرفة سوى وفاء وعمتها تحركت زينب في الغرفة بحرية وقالت وهي تجلس بجانب وفاء على حافة سريرها وقد وضعت مخدة فوق رجليها واحتضنتها

"استرحت الآن هاهو ذا سيعود مرة أخرى ولن يتركك حائرة أو تبحثن عن وسيلة لترينه غيرها".

لم تجبها وفاء بكلمة صمتت قليلا ثم أضافت:
"أتعلمين! معك حق. أي فتاة تتمتع بنظر عادي ولديها مشاعر طبيعية لا بد أن تجد محمود جذاب وسيما".

أكملت في تساؤل "ولكن ألا يظهر أنك نسيت شيئا"
قالت وفاء وهي هائلة "ماذا نسيت؟"

قالت زينب بعقلانية "أو بعد كل هذا التفكير فيه ألم يخطر ببالك لو كان خاطبا أو متزوجا يعني باختصار مرتبط".

عندها ضحكت وفاء وقالت بلا مبالاة "لا يهم أن يكون كما تقولين المهم إننا نرتاح لبعضنا ثم بعد كل هذا فلو تقدم لخطبتي لن أقبل

به فحبنا طاهر وليس فيه ما يدعو للخوف قالت زينب في حيرة "ماذا؟".
أجابتها وفاء في ثقة "نعم فأنا لا أحبه حبا نهائيه الزواج ولقد قلت
لك ذلك منذ البداية".

قالت زينب "لا تكنين له حب زواج حب ماذا إذن؟ أمرك غريب
وأمرى أغرب منك عندما صدقتك ولكنك كنت تتكلمين عنه بلهفة
وهو أيضا يظهر عليه ذلك".

قالت وفاء "نعم حب غريب وقد أحيرتك به أيضا مع أنني أشعر
بارتياح كبير عند الاقتراب منه تتفجر في نفسي أحلى المشاعر".

بعد رجوعه إلى العيادة مرورا بقاعة الانتظار إلى غرفة الكشف أوقفته
المرضة لتنبئه بوصول رسالة من المدينة. استلمها ودخل الغرفة وبعد
فتحها فوجئ بمرض أمه عائشة وإقامتها بمستشفى المدينة. جن جنونه
فخرج مسرعا بلاوعي منه. ركب سيارته، أدار المحرك ورحل بسرعة
تسابق الريح قطع المسافة في وقت وجيز وكان باله مشغول وعقله
شاردا لا يعلم مدى خطورة مرضها مع أنه قد مرت عليه حالات
خطيرة ولم يرتبك كل هذا الارتباك. تخطى أدراج المستشفى في لمح
البصر وهو لا يعلم إلى أين تقوده ساقاه. تقدم من الاستعلامات
ليستفسر الأمر قابله الممرضة وعرضت عليه خدماتها بكل لطف
وأشارت لممر أمامه وطلبت أن يسلكه ففي آخره غرفة أمه. طرق
الباب طرقا سريعا ولم ينتظر حتى يؤذن له لكنه دخل بسرعة ملفتة
للانتباه وجد أمه ممددة على الفراش وأبوه يقف بجوارها وقد رسمت على

محياء ابتسامه رقيقة. سأل وهو يلهث:

"ماذا جرى لك يا أمي؟ لقد تركتك بأحسن حال في المرة الفارطة قبل رحيلي".

طمأنه والده بقوة. "ما كل هذا الخوف والجزع اطمئن يا بني يظهر أن والدتك استحمت وخرجت مبتلة فصادفها البرد وبعد خروجها بقليل بدأت تسعل وتعطس هذا كل ما في الأمر قاطعته عائشة بعد أن رأت شحوب وجهه والحالة التي أتى بها لقد قلت له أن لا يبعث وراءك ولا يزعجك فلم يمثل لأمرى وعصاني كنت أعلم مدى قلقك عندما تعلم وأنك ستهول الأمر بعد قراءتك الرسالة.

تقدم منها وقيل جبينها وهو يتفحصها بعينين طائشتين وقال لها وهو يحس نبضها "ما الأمر يا أمي ماذا جرى لك لقد شغلني عليك".

<http://archive.ghazal.org> رفعت يدها إلى رأسه في خناها المعهود وأجابته:

لا تخف يا ولدي إنني بصحة جيدة الآن المهم لماذا جئت وتركت عملك ومرضاك فهم محتاجون إليك الآن أرجوك لا تهتم الأمر بسيط لا يدعو للقلق. الطبيب أخبرني أن المرض مجرد زكام سببه البرد الذي صادفني بعد خروجي من الحمام. اعتدلت في جلستها وأكملت في حزم "أما الآن يا بني لا تضيّع وقتك أكثر وارجع لعيادتك.

صمتت وهي ترى الطبيب يدخل الغرفة ويسلم بوجه بشوش وهو يرى الخوف مرسوما على وجه محمود فأخبره بأنها ستخرج هذا المساء وتذهب إلى بيتها وقال:

أنت طيب تفهم في هذا الأمر

فاطمأن وشكر الطبيب ورجع الجميع إلى البيت وبعد فترة ليست بالقصيرة من الحديث وهو في غرفة الجلوس سألت الأم في اهتمام عن أحواله في القرية. كيف يعيش وهل هو مرتاح أم لا هل وجد له صديق هل الممرضة التي تعمل معه تقوم بالأعمال كما يجب عندها انفلتت من محمود تنهيدة عذيقة وقال:

"لا تشغلي نفسك بمتة الأمور يا أمي فصحتك أهم، حدثيني أنت ماذا فعلت بعدي"

قال أبوه بملل وهو يسند ظهره إلى الأريكة:

لقد أتعبتني أمك يا بني. تسأل عنك في كل لحظة تقريبا. في كل وجبة طعام. في كل وقت نوم، وفي كل صباح لقد مللت كل لحظة أجلس إليها هل يأكل جيدا؟ هل يجد وقت للراحة: هل وهل.. أنت تعرف أمك يا محمود.

ابتسم وهو يضع يديها بين راحتي يديه وقال: "أمي تعاملني كطفل لم يتعدى الخامسة من عمره لقد أصبحت رجلا أم أنك لم تلاحظي ذلك".

لم يعجبها رده على كلامها قالت بغضب وهي تحاول إطلاق صراح يدها من بين يده وهي تنظر إلى زوجها.

"أنت تعرف أنه ليس لي في هذه الدنيا سواء بعدما أحرمني الأطباء بعدم الخلقة بعده. التفتت إلى محمود وهي تحاول أن تهدئ من غضبها:

"اعذربي يا ولدي فأنا أم وعندما تصبح أبا ستعرف مدى شعوري هذا".

قال رؤوف في صوت حازم: "هو الآن أصبح رجلا مثلما قال لك فلا تعيبي بأفكار". هذه.

قال محمود وهو يحاول أن يخفف من حدة الموقف: "يظهر أنكما نسيتماني بمشاجرتكما هذه".

ردّ الأب بثقة "لماذا لا تتزوج فتهتم زوجتك بك وتريحنا من هذا العناء. ألا يكفي ما عانيناه منك طوال حياتك؟".

انتفضت في غضب وهي تلتفت إليه "أكرهت ابنك يا رجل؟" أجابها محمود وهو ينهها بأنها مازالت مريضة ولا يجوز الانفعال. "لا تنفعلي يا أمي فأبي يمزح ولا يقصد شيئا ثم إنني في سن الزواج الآن".

قالت في استسلام "إذن أنت ترحب بالفكرة وتريد الزواج حقا". احتضن أمه في ليونة وأردف يقول: "هل يفضبك زواجي أن كان كما قلت سأعدل عنه".

تهتدت وهي تربت على كتفه: "لا يا ولدي بالعكس منايا أن أراك متزوجا وأراك أبا وأحمل أحفادي بيدي هاتين كما ربيتك. أحقا أنت جاد؟"

ضحك محمود وقال "أنا جئت لزيارتك لا لأتزوج".

قالت له في جد "لما لا أجد لك العروس المناسبة؟"

قال: "لا يا أمي أنا أمزح".

جاء صوت أبيه بقوة المعهودة "ليست لعبة لتشتريها له إنما عروس وستصبح شريكة حياته في المستقبل".

قالت وهي تريد أن تصلح ما قالته "إذن فليشر علينا بالفتاة التي اختارها لو كان قد اختار فعلا ونذهب ونخطبها له".

حدثهم محمود عن وفاء وما تمتاز به من جمال وأخلاق عالية وبما وصلته من مكانة في قلبه. فرحا ولم يصدقا واستبشرا بهذا الخير السعيد وقررا أن يلتحقا به إلى القرية بعد رجوعه في الأسبوع المقبل وبعد كل المفاهمة وترتيب اللقاء الذي سيكون بينهم وبين والدي وفاء ودعهم ورجع إلى القرية وقلبه مملأه بموافقة والديه ومباركتهما هذا الزواج بالفتاة التي اختارها قلبه.

هناك وبعد العمل الذي قام به في المستشفى والعيادة وقد جاء يوم العطلة الأسبوعية وفي الموعد الذي قد قطعه على أهل فتاته حيث ذهب لتناول الطعام معهم. دخل البيت وهو لا يصدق أنه سيفاتها في الموضوع وجدها في الحديقة. أتجه نحوها. حياها ثم اقترب منها.

كانت تتمتع بجمال أخاذ. شعرها الأسود المتموج الخصلات سرحته بعيدا عن جبينها عند رأسها بعقدة أنيقة بشرتها الصافية كانت تميل إلى سمرة برونزية وعيناها الداكنتان تملأها فرحة ظاهرة قادها برشاقة وليونة في الحركة فتبعته طائعة وهي غارقة في ظل رجولته توقف فجأة فاتحها في الموضوع وبدون مقدمات وهي تنظر إليه باهتمام وأخبرها بما اتفق عليه مع أمه وأبيه إلا أنها لم تنطق بكلمة طوال الوقت ولاحظ امتقاع

وجهها حياء لطبيعتها البريئة المتفتحة على الحياة وطراً عليها تغيير مفاجئ تلمسه من خلال الأحاسيس المتناقضة المتفاعلة في أعماقها. انقضها صوت أمها وهي تدعوها للطعام. رحل محمود بعد الإتفاق التام مع وفاء والديها.

في صباح اليوم التالي ذهبت وفاء إلى عمتها زينب وأطلعتها كل ما رواه لها محمود. باركت زواجها وقالت وهي غير مصدقة لما تسمع "هل قلت له شيء هل أعطيته كلمة قررت مصيركما.وقفت وفاء في حركتها ألا مبالية رشاقة كسولة وقالت: "أنا لم أنطق بكلمة واحدة ولم أعد به شيء".

وقتها تذكرت زينب الكلام الذي دار بينهما عندها أرادت أن تعرف مشاعرها نحو محمود استغربت وقالت بنبرة كلها رجاء أرجو أن توافقي لأنه يحبك وأنت أيضاً ولا تنوهمي بأشياء لو عرفها أحد غيري وخاصة محمود لا أظن أنك فقدت عقلك وهذا مستقبلك وما أضنك بتعدين أحسن منه.

اقتنعت وفاء بكلام عمتها وانصرفت عائدة أدراجها البيت. مرّت الأيام متناقلة وجاء يوم الموعد. بعدما انتهى من عمله وقد أسدل الغسق عباءته على الكون وهبت نسمة باردة فتوارى قرص الشمس وراء الأشجار.

يتبع